

استكشاف الرمال: حملة كورنيليوس بالبوس الصغير في الصحراء الأفريقية (19-21 ق.م)
Exploring the Sands: The Expedition of Cornelius Balbus Minor in the African Desert (21-19 BC)

1- أسامة بقار*، جامعة محمد خيضر، بسكرة (الجزائر)

o.bagar@univ-biskra.dz

تاريخ الاستلام: 2025 /07/21 تاريخ القبول: 2025 /11/21 تاريخ النشر: 2025 /12/3

ملخص:

يعالج هذا المقال الحملة التي قادها كورنيليوس بالبوس الصغير في عمق الصحراء الأفريقية في 19-21 قبل الميلاد، بوصفها واحدة من أكثر المبادرات الاستكشافية والعسكرية جرأةً وطموحًا المنفذة من قبل الرومان خارج حدود نفوذهم التقليدي في بلاد المغرب. وتكمن أهمية هذه الحملة في بعدها غير التقليدي، إذ لم تكن مجرد غزو مباشر أو توسع عسكري بحت، بل جاءت ضمن مسعى استكشافي واسع النطاق، هدف إلى ترسيخ حضور رمزي وسياسي للإمبراطورية الرومانية في مناطق بعيدة، كانت لا تزال طبيعتها السياسية والجغرافية مجهولة لدى الرومان. ومن خلال تحليل السياق التاريخي للحملة، واستعراض مسارها المفترض، يسلط المقال الضوء على أبعادها الرمزية والسياسية والاستراتيجية، وعلى دلالاتها العميقة ضمن مشروع روما الواسع لإعادة تشكيل خارطة نفوذها في العالم المعروف آنذاك. كما يسعى إلى إعادة الاعتبار لهذا الحدث المهمّش والمنسي في أغلب الكتابات التاريخية العربية، نظرًا لما يثيره من قضايا محورية تتعلق بتصوّر الرومان للصحراء وتمثّلهم للمجال الإفريقي بوصفه فضاءً قابلاً للاستكشاف والسيطرة والاحتواء ضمن مشروعهم الإمبراطوري. كلمات مفتاحية: حملة، كورنيليوس بالبوس الصغير، الغرامنت، الجيتول، الصحراء.

Abstract:

This article examines the campaign led by Cornelius Balbus Minor into the heart of the African desert in 21-19 BC. It presents this expedition as one of the most daring and ambitious exploratory and military ventures undertaken by the Romans beyond the traditional boundaries of their influence in the Maghreb. This article examines the campaign led by Cornelius Balbus the Younger into the heart of the African desert during the final decades of the first century BC. It presents this expedition as one of the most daring and ambitious exploratory and military ventures undertaken by the Romans beyond the traditional boundaries of their influence in the Maghreb. By analysing the historical context of the campaign and reconstructing its likely trajectory, the article highlights its symbolic, political, and strategic dimensions, and explores its deeper implications within Rome's broader project of redrawing the map of its influence across the known world. It also seeks to draw scholarly attention to this marginalised and often overlooked event in Arabic historical writing, given the fundamental questions it raises about Rome's perception of the desert and its conceptualisation of the African sphere as a space open to exploration, domination, and integration into its imperial framework.

Keywords: Expedition; Cornelius Balbus Minor; Garamantes; Gaetuli; African Desert.

مقدمة

في أواخر القرن الأول قبل الميلاد، كانت الدولة الرومانية منشغلة بترسيخ دعائم سلطتها في مقاطعة "إفريقيا البروقنصلية" (Africa Proconsularis)، التي أنشئت سنة 27 ق.م في خضمّ التحوّلات العميقة التي شهدتها روما خلال انتقالها من نظامها الجمهوري إلى النظام الإمبراطوري. وفي خضمّ هذا المسار، ظلّ الجنوب الإفريقي، في تصوّر النخبة السياسية والعسكرية الرومانية، يمثل فضاءً غامضاً ومجهول

المعالم، خارج الإدراك الجغرافي المتداول، وبعيدًا عن مراكز السلطة الرومانية الفعلية. غير أنّ هذا الامتداد الصحراوي، بما فيه من شساعة وغموض، كان يستبطن إغراءات متعدّدة ذات أبعاد توسعية ورمزية واستراتيجية، جعلته حاضرًا في المخيال الروماني كمجال مفتوح على الطموحات الإمبراطورية. وفي هذا الإطار، قاد حاكم إفريقيا "كورنيليوس بالبوس الصغير" حملة عسكرية استثنائية نحو أقصى الجنوب، أثارت ولا تزال تثير تساؤلات جوهرية تتعلّق بدوافعها الحقيقية، ومدى امتدادها، وطبيعتها الاستكشافية أو الرمزية، وموقعها ضمن مشروع الهيمنة الإمبراطوري الذي كانت روما بصدد هندسته. إذ جاءت هذه الحملة في لحظة مفصلية كانت فيها الإمبراطورية الناشئة تعيد صياغة خارطة نفوذها في الحوض المتوسطي، وتؤسّس لنموذج جديد من السيطرة يقوم على فكرة تجاوز الحدود التقليدية للجمهورية وبسط الحضور في تخوم لم تكن مألوفة في التصور الجيوسياسي الروماني. تنبع إشكالية هذا البحث من التساؤل حول الكيفية التي مثّلت بها هذه الحملة لحظة اختبار حقيقية لقدرة روما على التوسّع في مجال صحراوي غير مأهول بكثافة، لا يندرج ضمن منطق الغنيمة أو الضرورة العسكرية المباشرة. فهل كانت الحملة خطوة استكشافية محضة؟ أم أنها تندرج ضمن تصور سياسي عميق يسعى إلى ترسيخ رمزية الإمبراطورية وتوسيع خريطتها الذهنية والجغرافية؟ وتنبثق من هذه الإشكالية فرضية رئيسية مفادها أنّ هذه الحملة، وإن بدت محدودة من حيث النتائج العسكرية المباشرة، فإنّها شكّلت حلقة مفصلية في مسار بناء التصور الروماني للجنوب الإفريقي، بوصفه فضاءً قابلاً للاستيعاب ضمن مشروع توسعي بعيد المدى.

يهدف هذا المقال إلى إعادة بناء مسار هذه الحملة الرومانية في الصحراء المغاربية، وتحليل سياقاتها الجغرافية والسياسية اعتمادًا على ما وصل إلينا من مصادر أدبية وجغرافية، مع إدراج هذا الحدث ضمن إطار السياسات الاستكشافية التي اعتمدها روما في مطلع العصر الإمبراطوري لتثبيت إدارتها الحدودية وفهم المجال الصحراوي المتاخم لولايتها الإفريقية. ويقوم البحث على مقارنة تحليلية نقدية تُقارن بين نصوص المؤرخين والجغرافيين الرومان وبين نتائج الدراسات الحديثة المتعلّقة باستراتيجيات روما في مراقبة حدودها الجنوبية وتنظيم المجال الصحراوي. ويطمح هذا العمل إلى سدّ فجوة واضحة في الدراسات العربية حول السياسات الاستكشافية الرومانية في المنطقة المغاربية، وهي سياسات سبقت التوسّع العسكري وشكّلت جزءًا من رؤية أوسع لإدارة الفضاءات الحدودية للإمبراطورية. كما يسعى إلى إضاءة حدث لم يحظَ بما يكفي من الدراسة المتخصصة، على الرغم من دلالاته الاستراتيجية والفكرية المهمّة في فهم طبيعة المشروع الإمبراطوري الروماني وطريقة تعامله مع عمق الصحراء المغاربية.

1. النصوص المصدرية لحملة "كورنيليوس بالبوس الصغير"

تعرف هذه الشخصية عادة في الدراسات التاريخية بتسمية "كورنيليوس بالبوس الصغير" تمييزاً له عن عمه "ل. كورنيليوس بالبوس" (L. Cornelius Balbus). إن الحملة الناجحة التي شنها "الببوس" في عمق أراضي الغرامنت (Garamantes) والجيتول (Gaetuli)، والتي تكللت بانتصار احتفل به في العاصمة "روما"، لم تكن فقط نقطة تحول في المسار السياسي والعسكري لهذه الشخصية، بل أيضاً في عملية الاحتلال الروماني لبلاد المغرب الذي كان بحاجة إلى عمليات توغل واستكشاف وتقصي. لذلك، فإن البعد الاستكشافي قد أضاف إلى جملة المكاسب العسكرية المحققة، فقادته العملية إلى مواجهة شعوب شهيرة وأراضٍ ظلت مجهولة على هوامش الإمبراطورية، وكانت محط أساطير مختلفة. وميزة حملة "الببوس" أنها خرجت عن الدوافع التقليدية للحملة إلى دافع جديد يحقق ما يمكن تسميته بالحلم الروماني. فصدى الحملات التي تستهدف ما وراء نهاية مجال مقاطعة حديثة الاستحداث (إفريقيا البروقنصلية) بقدر ما يصنع نجاحاً ودعاية للسلطة الإمبراطورية، فإنه حقق مجداً وشعبية هائلتين لصاحبه. فما طبيعة الوثائق المخدلة لهذا الحدث الهام؟ نحوز وثيقة نقائشية ونصين أدبيين خلّدوا هذا الحدث:

1- الوثيقة الأولى تتمثل في وثيقة نقائشية تعرف "بأبهة الانتصارات الكابيتولينية" (Fasti Capitolini) وقد ورد فيها: "ل. لورنيليوس بالبوس"، ابن "ببليوس" بروقنصل منتصر في إفريقيا. تحصل على شرف الانتصار في سنة 734 من عمر روما، في اليوم السادس قبل كالوند شهر أفريل=27 مارس 19 ق.م.¹

2- على عكس البروقنصلية السابقين الذين حققوا انتصارات عسكرية وأقيمت لهم مواكب النصر، نحوز تفاصيل أكبر عن حملته الشهيرة بفضل فقرة نقلها الجغرافي الموسوعي "بلينيوس الأكبر" في مؤلفه "التاريخ الطبيعي"، فأورد أنه شن حملته ضد الغرامنت، ثم عدّد مختلف المدن والشعوب التي ظهرت في الصور المرافقة لعرباته، ومن أشهر المدن التي أمكن التعرف عليها بسهولة نجد "جرمة" (Garama) عاصمة الغرامنت وإقليم فزان (Fezzan)، وغدامس (Ghadames) التي عثر بها على عديد النقوش اللاتينية ومدن أخرى واقعة بربوع الجيتول.² وقد ورد عند "بلينيوس الأكبر الآتي": "[بين مجال الأمانتييس (Amantes) وبين ساكنة الكهوف (Troglodytae)] تقع "فزانيا=بلاد فزان (Phazania)

¹ A.E, 1889, 70 (Roma).

² Pliny the Elder, Natural History, Translated by H. Rackham. Loeb Classical Library 352. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1942, V, 5.

في الوسط بين صحاري إفريقيا ووراء خليج السيرت الصغير (Minor Syrtis). هنا أخضعنا شعب (قبيلة) الفزانين ومدينتي "آليي" (Alele) و"قيليبا" (Cilliba)، وكذلك "قيداموس" (Cidamus) الواقعة باتجاه إقليم "صبراتة". وبعد هذه المدن يمتد جبل (سلسلة جبلية) على مسافة طويلة من الشرق إلى الغرب [نقطعه من شروق الشمس لغروبها] والذي سماه شعبنا بالأسود (Ater) بسبب طبيعته، وهذا إما لأنه يبدو تعرض للنيران (محروق) أو لأنه أخذ هذا المظهر بفعل التعرض لأشعة الشمس.

وراء هذه السلسلة الجبلية نجد الصحراء، ثم مدينة للغرامنتيين تُسمى "ثيلغي/ثيلجي" (Thelgae)، و"ديبريس" (Debris) وبجوارها يوجد نبع مياهه تغلي (ساخنة للغاية) من منتصف النهار لمنتصف الليل ثم تصبح جامدة (باردة) لنفس عدد الساعات حتى منتصف النهار. وكذلك المدينة الشهيرة "جا راما=جرمة" (Garama)، عاصمة الغرامنتيين. وكل هذه الأماكن خضعت للأسلحة (الجيوش) الرومانية، حيث تم غزوها عبر "لورنيليوس بالبوس" الذي تحصل على احتفال الانتصار وهو الأجنبي الوحيد الذي مُنح له عربة الانتصار وحق المدينة (حقوق المواطنة): لأنه في الواقع ولد في "قادس" (Cadix)، وتحصل على تصريح (لقب) المواطن الروماني رفقة عمه "الببوس الأكبر". وإليك المدهش في هذا الظرف الاستثنائي، وهو أن كتابتا ينسبون له إخضاع (السيطرة على) المدن الأنفة الذكر، وقد أشرف بنفسه على هذا الانتصار. وزيادة على "قيداموس" وج "اراما"، فقد حمل في موكب الانتصار أسماء وصور كل الأمم (القبايل) والمدن الأخرى التي أخضعها بالترتيب التالي: مدينة "تابوديوم" (Tabudium)، قبيلة "نيتيريس" (Niteris)، مدينة "ميغليس جيميللا" (Miglis Gemella)، قبيلة أو مدينة "بوبيوم" (Bubeium)، قبيلة إنيبي (Enipi)، مدينة "ثوبين" (Thuben)، جبل معروف باسم "نيغير=الأسود" (Niger)، مدينتين معروفتين باسم "نيتيبروم" (Nitibrum) و"رابسا" (Rapsa)، قبيلة "ويسقيرا" (Vescera)، قبيلة "ديسقيرا" (Discera)، مدينة "ديبريس" (Debris)، مدينة "ديكري" (Decri)، وادي "ناثابور" (Nathabur)، مدينة "تابساغوم" (Thapsagum)، قبيلة "ناناغي/نامياغي" (Nannagi/Namiagi)، مدينة "بوان" (Boin)، مدينة "بيغي" (Pegi)، وادي "داسيباري" (Dasibari)، ثم سلسلة من المدن: "باراقوم" (Baracum)، "بولوبا" (Buluba)، "الاسيت" (Alasit)، "غالسا" (Galsa/Balsa)، "باللا" (Balla/Galla)، "ماكسولا" (Maxulla)، "قيزانيا" (Cizania/Zizama)، جبل "غوري" (Gyri) الذي يُسبق بلوحة مكتوبة (من خلال عنوان الصورة) تورد بأنه ينتج الأحجار الثمينة.

وحتى الآن ليس هنالك أي مسلك (طريق) مشقوق يؤدي (يوصل) إلى بلاد الغرامنتيين، لأن قطاع طرق (لصوص) هذا القوم يملؤون الآبار بالرمال وهذه الآبار ليس من الصعب إعادة حفرها وإخراج الرمال منها إذا استطعت معرفة أماكنها وذلك لأنها ليست عميقة. على أنه في الحرب الأخيرة * التي خاضها الرومان ضد ساكنة "طرابلس" (Oea) في بداية حكم الإمبراطور "واسباسيانوس" تم العثور (اكتشاف) وبشكل فجائي، على طريق مختصر يستغرق أربعة أيام، وهذا المسلك يُسمى "المجاور لرأس الصخرة (عبر قمة الصخرة)".¹

3- ذكر النحوي والجغرافي "ق. يوليوس سولينوس" الذي عاش خلال القرن الثالث أو الرابع ميلادي في معرض حديثه عن الغرامنت أن: "لورنليوس بالبيوس" أخضع الغرامنتيون وكان أول من انتصر على هذا الشعب، كما كان أول أجنبي نال شرف الانتصار لأنه من "قادس".²

2. الجدل الذي لا ينتهي: أي مسارات للحملة:

إن محاولة معرفة المدن والأودية والقبائل التي شملتها يكون بالعودة إلى أسمائها ومحاولة تحديد هويتها. سنعمل في البداية على تقديم مطابقة بين الأسماء القديمة الواردة في إشارة "بلينيوس" وما يقابلها من مواقع حالية في النقاط الآتية:

1 - بلاد فزان (فزانيا): منطقة جغرافية تاريخية تمتد على الجنوب-الغربي لليبيا وجنوب تونس وبها تتواجد العاصمة "جرمة".

2- آليي (Alele): تقع بفزانيا، قد تكون الاسم الليبي لمدينة رأس العين (Talalati) في "تطاوين".³

* توفي "بلينيوس الأكبر" سنة 79م وهو هنا يتحدث عن أحداث قريبة لتاريخ وفاته مفادها أنه استنجد سكان "طرابلس" بالغرامنتيين ضد سكان "لبدة"، ما دفع بالمفوض الإمبراطوري "واليريوس فستوس" للتدخل أين تمكن من تحرير لبدة وطرد الغرامنتيين في 69-70م Tacitus, Histories, Translated by Clifford H. Moore, John Jackson. Loeb Classical Library 249. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1931, IV, 50.

¹ Pliny the Elder, V, 35-37, J. Desanges, Le triomphe de Cornelius Balbus (19 avant J. C), R. Afr, CI, 1957, pp 08-10.

² Caius Iulius Solinus: Polyhistor, trad: M. A. Agnant, C. L. F. Panckoucke, 1847, XXIX-XXX.

³ P. Trousset, Alele, Encyclopédie berbère, 3 | 1986, 439-440, pp 439-440.

- 3- قيليبيا (Cilliba): تقع بفزانيا، وعلى الأرجح هي التسمية الليبية لرمادة (Tillabari).¹
 - 4- "قيداموس" (Cidamus): هي بالتأكيد مدينة "غدامس" الواقعة بفزان.²
 - 5- "صبراتة": مدينة معروفة، وتقع بإقليم المدن الثلاث (تريبوليتانيا).
 - 6- جبل أثير (Ater): قد يكون جبل نفوسة،³ أو الحمادة الحمراء.⁴
 - 7- "ثيلجي" (Thelgae): مدينة غرامنتية على الأقرب عبارة عن واحة، على أنه عسر تقديم مطابقة لها.
 - 8- ديريس (Debris): مدينة غرامنتية، قد تكون "أم العبيد" (Oum el-Abid) إلى الشمال-الغربي لجرمة،⁵ أو "إدري" (Edri).⁶
 - 9- جاراما=جرمة: مدينة شهيرة تقع في قلب "فزان" وهي عاصمة مملكة الغرامنت.⁷
- عند تأمل هذا الجزء الأول من مقطع "بلينوس"، نجد أنه يشير بوضوح إلى أن "الببوس" حصل على مراسم الانتصار نظير انتصاراته المحققة في بلاد فزانيا، فقد عبر العديد من المدن والواحات، ما أوصله في النهاية إلى العاصمة "جرمة". وذكر هذه المدن يجعلنا نتصور أنه خرج من "قرطاجة" (Carthage)، ليتوغل جنوباً حيث وصل إلى مدن "رأس العين" و"رمادة"، ومنهما توجه إلى "صبراتة"، حيث أخذ دليلين في حملته إلى بلاد الغرامنت. ومنها توجه مباشرة إلى "غدامس"، ليعود ويلتف حول جبل "أثير"، ثم ينزل إلى "ثيلجي" و"ديريس"، ما قاده في النهاية إلى عاصمة الغرامنتين، مدينة "جرمة". لذلك، فإن حملته

¹ Ibid.

² P. Troussset, Cidamus, Encyclopédie berbère, 13 | 1994, pp 1953-1954.

³ A. Berthier, La Numidie ; Rome et le Maghreb, Paris : Picard, 1981, p 95.

⁴ J. Desanges, Plin l'Ancien : histoire naturelle, livre V, 1-46. 1re partie (L'Afrique du Nord), édition, trad et commentaire par Desanges Jehan, Paris, Les Belles Lettres, 1980, p 390.

⁵ Plin l'Ancien, Histoire naturelle de Plin, Trad: M. Ajasson de Grandsagne, C.L.F. Panckoucke, Paris, 1833, IV, 1829-1833, p 179.

⁶ David J. Mattingly, Tripolitania, London : Batsford, 1995, p p 85, 114.

⁷ P. Troussset, Garama, Encyclopédie berbère, 19 | 1998, pp 2964-2969.

ضد الغرامنت مسألة واضحة ولا لبس فيها. لكن في المقابل، تواجهنا صعوبة في تحديد هوية بقية المدن والأودية والقبائل، وهو ما يمكن الوقوف عليه في النقاط الآتية:

1- تابوديوم Tabudium: مدينة محصنة على الأرجح هي "تهودة" (Thabudeos)، الواقعة على بعد 25 كلم شرق "بسكرة" (قرب سيدي عقبة).¹ على أننا نجد مدينة ذكرها بطليموس باسم Tabidium، تقع بالقرب من منبع "وادي مجردة" (Bagrada) نواحي سواق أهراس.²

2- نيتيريس Niteris أو Niciebres: شعب قد يتوافق مع "الناتوريين" (Naturi) القاطنين على التماس مع الحدود الجنوبية لإقليم المدن الثلاث (Tripolitania). لكن الأقرب أنهم قد يكونون "النيسيويين" (Nicives) أو "النيسيبيين" (Nicibes) القاطنين بالجنوب القيرواني، وهم قبيلة مترحلة على الأقرب تمركزت فيما بعد بما يعرف اليوم بمدينة "نقاوس" (Nicivibus).³

3- ميغ ليس جيميللا (Miglis Gemella): هي على الأقرب "القصبات" (Gemellae) الواقعة في بلدية "مليي"، على بعد 38 كلم إلى الجنوب-الغربي من بسكرة.⁴

4- "بوبيوم Bubeium": مدينة أو شعب عسر تحديده ومطابقته.

5- إنبي (Enipi): شعب ذكر غير بعيد عن "طبنة"، وقد تكون قبيلة مترحلة بشمال الحضنة وعرفوا باسم مكان هو "نيبيس" (Nippis) في فترة متأخرة، والذين تم ترحيلهم بأمر من "هنريق" ملك الوندال في 484-484م.¹

¹ S. Guédon, La frontière romaine de l'Afrique sous le Haut-Empire, Casa de Velázquez, Madrid, 2018, p 136.

² H. De La Ville de Mirmont, Cicéron et les Espagnols (suite et fin), Bulletin Hispanique, t°8, n°1, 1906, p 11.

³ S. Lancel, une inscription de Tigris, Libyca, III, 1955, pp 289-298, M. Rachet, Rome et les Berbères. Un problème militaire d'Auguste à Dioclétien (Collection Latomus, vol. 110), Bruxelles, 1970, p 71, n° 5.

⁴ P. Troussset, Gemellae, Encyclopédie berbère, 20 | 1998, pp 3008-3013, J. Desanges, 1957, pp 22-23, S. Guédon, Op.Cit, p 213, n° 167.

- 6- "ثوبن Thuben": هي على الأقرب "طبنة" (Tobna) الواقعة ما بين بلديتي "بيطام" و"بريكة".²
- 7- الجبل الأسود Niger: يعتقد الباحث "هنري لوت" أنه نهر النيجر الذي يمر عبر "غينيا-مالي-النيجر-البنين-ويصب في "نيجيريا"، لكننا نعتقد أنه على الأرجح جبل ماجور أو نقرين (Negrenses) والذي منه أخذت هذه الأخيرة تسميتها.³
- 8- "نيتيبروم Nitibrum": مدينة مجهولة نميل لكونها "أم قريقيش" (Civitas Nattabuttum) التي قطنها قبيلة "الناتابوتين" (Nattabutes) ببوعطفان، بلدية عين العربي أقصى جنوب ولاية قالمه).
- 9- رابسا Rapsa: قد تكون مدينة "قفصة" (Capsa) بالجنوب التونسي،⁴ وقد تكون مدينة "غات" (Ghat) في الجنوب-الغربي لليبيا الحالية، في طاسيلي ناجر على الحدود الليبية-الجزائرية،⁵ على أن فرضية صعوبة القبول لبعدها ووقوعا جنوب "جرمة" عاصمة الغرامنت.
- 10- ويسقيرا Vescera: شعب كان يقطن على الأرجح فيما يعرف اليوم بمدينة "بسكرة".⁶
- 11- "ديسقيرا Discera": قبيلة يتعذر تحديدها، لكن يرجح أنه منتشر غير بعيد عن بسكرة نظرا لتشابه التسميتين.
- 12- ديريس (Debris): مدينة يصعب تحديد موقعها وهي شبيهة في التسمية للمدينة "الغرامنتية".

¹ J. Desanges, Enipi, Encyclopédie berbère, 17 | 1996, p 2643.

² J. Desanges, les territoires gétules de Juba II, R.É.A, t 66, 1964, n°1-2, p 39, S. Guéron, Op.Cit, p 136.

³ H. Lhote, L'expédition de Cornelius Balbus au Sahara en 19 avant J.-C, d'après le texte de Plin, R.Af, t° XCVIII, 1954, pp 41-81, J.-P Laporte, X. Dupuis, De Nigrenses Maiores à Négrine, Ant.Afr, v° 45, 2009, p 55, P. Troussset, Besseriani (Ad Majores), Encyclopédie berbère, 10 | 1991, pp 1478-1480.

⁴ G. Camps, Dasibari, Encyclopédie berbère, 15 | 1995, pp 2233-2234.

⁵ M. Gast, Imenân, Encyclopédie berbère, 24 | 2001, p 3686.

⁶ S. Guéron, Op.Cit, p 136.

- 13- ديقري Decri: مدينة حسب المؤرخ "ديسانج" هي "عزيز بن تليس" (Idicra)-شمال بئر العرش"، وهي تابعة لنوميديا وسكنها السوبوربر (Suburbures) وليس المور (Maures) وهو رأي يبقى ضعيف.¹
- 14- ناثابور Nathabur: وادي مجهول قد يكون من الأودية الهامة على غرار واد الأبيض، العبيدي وبريكة.
- 15- ثابساغوم Thapsagum: مدينة افترض البعض أنها "تابسوس"، وهو رأي نشكك فيه نظرا لكونها ضمن السيطرة الرومانية في هذه الفترة، ونرجح بدلا هو "تاوره" (Thagura) جنوب سوق أهراس.²
- 16- ناناغي Nannagi: شعب يعسر تحديد موقعه، نميل لكونه ضمن المجال الأوراسي.
- 17- بوان Boin: مدينة غير محددة يعتقد أنها تعتقد في "المزاق" (Byzacene)، لذلك نتصور أنها "بير رهزن، سيدي محمد بن عيسى" (Bezereis) التي أقيم بها معسكر في عهد الإمبراطور "كومودوس".³
- 18- "بيغي" (Pegé): مدينة مجهولة قد تكون "هنشير البليو" (Casae Beguenses) بالقصرين على أراضي الموزولاميين (Musulames)، أو موقع مجاور له يسمى "البليو" (Saltus Beguensis)، كما تذكرنا التسمية بوادي باغيدا (Bagyda).⁴
- 19- داسيباري Dasibari: هو اسم وادي كبير منتظم الجريان (flumen)، على أنه صعب تحديده. مع ذلك، قدم الباحث "لوت" فرضية جريئة مفادها أن التسمية قد تكون مشتقة من لغة الصُنغاي، معتبرا أنه يجب قراءتها على شكل "Da-isa-Bari"، وتعني "isa" النهر و "bari" الكبير، وكلمة "Da" تشير للاسم القديم لشعب الصُنغاي، وبالتالي معنى التسمية "النهر الكبير للصُنغاي" المعروف حاليا باسم "نهر النيجر". وطبعا هذا الرأي مستبعد تماما نظرا لبعده والأرجح أنه وادي مجهول يمر عبر فزان أو بلاد الغرامنت أو السهوب الجيتولية بين الجريد وجنوب الأوراس.. خصوصا وأن التسمية إفريقية، فالجندر Bar نجده في أسماء عديد المواقع المغربية: Tillibar، Thibari، Zucchabar وغيرها.⁵

¹ J. Desanges, 1957, p 26.

² J. Desanges, 1957, p 27.

³ J. Desanges, 1957, p 28.

⁴ J. Desanges, 1957, p 29.

⁵ H. Lhote, Op.Cit, pp 41-81, G. Camps, Op.Cit, pp 2233-2234.

- 20- باراقوم Baracum: مدينة يصعب تحديدها ونستبعد تماما فكرة أنها مدينة على ضفاف وادي "بريكة" الذي يصب في شط الحضنة، ونرجح أنها قد تكون "الركّة" (Rogga) المعروفة قديما بـ Bararus بالمزاق قرب "الجم" (Thysdrus).¹
- 21- بولوبا Buluba: مدينة مجهولة ربما قد تكون هنشير الباهية (Biha Bilta) شرق "باجة" (Vaga).
- 22- آلاسييت Alasit: حسب الباحث "لوت" هي "إلزي" المعروفة ببرج عمر إدريس (700 كلم عن إيليزي)، وهو ما نستبعده، ونقترح كبديل موقع قريب من "بولوبا" هو "مدينة" (Althiburos) نواحي الكاف.
- 23- غالسا (Galsa/Balsa): حسب الباحث "لوت" هي "أباليسا" (Abalessa) بالهقار، وهو رأي مستبعد، ونقترح بدله "هنشير الفوار" (Belalis) قرب باجة في الظهير التونسي.²
- 24- "باللا" (Balla/Galla): مدينة غير محددة لا نستبعد أن تكون "قصر صباحي" (Gadiaufala) لأن المدينة التي ذكرت بعدها هي على الأقرب "خنشلة".
- 25- ماكسولا (Maxulla): هي على الأقرب "خنشلة" (Mascula) بالشمال الأوراسي.
- 26- قيزانيا (Cizania/Zizania): قد تكون "قيزان" (Cizan) التي ذكرها القديس أوغسطين في نواحي "هييون"، لكن نقترح "جبل (عين) سكير" (Zigira) في نواحي "تستور" (غير بعيد عن باجة).³
- 27- جبل "غوري" (Gyri): ويسمى أيضاً جبل "غيري" (Giri)، الذي أشار بلينيوس إلى أنه ينتج الأحجار الثمينة. ويشير أيضاً إلى وجود جبل عند "الناسمون" (Nasamones) ينتج الأحجار الكريمة المسماة "القرطاجية" أو "الغرامنتية"، وبالتالي ربما يقع هذا الجبل في بلاد الناسمون. لكن "ديسانج"، بالاستناد إلى اسم أسقفية ذكرت سنة 484م هي "Girumontensis" في موريطانيا القيصرية (Mauretania Caesariensis)، مع إرفاقها بشهادة لسترابون الذي ذكر أن هناك جبلاً تنتج الأحجار الثمينة تقع في

¹ J. Desanges, 1957, p 30.

² M. Gast, Abalessa, Encyclopédie berbère, 1 | 1984, pp 54-55.

³ J. Desanges, Recherches sur l'activité des Méditerranéens aux confins de l'Afrique (VIe siècle avant J.-C. - IVe siècle après J.-C.), coll. de l'École Française de Rome, Paris (De Boccard) et Rome (l'Erma), 1978, p 190, n° 8.

بلاد المازيسيل،¹ تبنى رأي وقوعها في القيصرية. وحسب "كامبس"، فإنه إذا عدنا للدراسة الإسمية للجبال (oronyme)، فإنه قد يكون في جرجرة التي بها عدة جبال لها جذر "Ger"، وهناك مدن لها أيضًا ذات الجذر. كما قد يكون له ارتباط بئر الخربة (Castellum Gurolense) قرب سطيف (06 كلم إلى الجنوب الغربي لعين أرناط). مع ذلك، نميل لفرضية وقوع هذا الجبل في بلاد الناسمون، خصوصًا أن الجغرافي "بطليموس" يذكر أن واديًا في إقليم المدن الثلاث يسمى "قينيبيس" (Cynips) ينتج بدوره الأحجار الكريمة، والذي ينبع من جبل "غيرغير" (Girgir). وفي مقال حديث نسبيًا، خلص "لوفرانك" إلى تحديد هذا الجبل بالسلسلة الصغيرة للحساونة أو جبل فزان (خط الطول 14° شرقًا، دائرة العرض 28° شمالًا) بالاستناد إلى الظروف المعدنية لهذه السلسلة المواتية لتشكيل الأحجار الكريمة. وقد تكون هذه الأحجار الكريمة مرتبطة جزئيًا بالزمرد الغرامنتي، الذي هو في الواقع أمازونيت (Amazonite). وعليه، نميل لفرضية أنه هذا الجبل يقع في أراضي الناسمون، خصوصًا وأن لوحة بوتيفر تذكر واديًا يحمل اسم "غيرين" (Girin) في بلاد الناسمون، واحتكّار الغرامنت تجارة أحجاره الكريمة المستخرجة منه.²

إن هذه الإشارة التي نقلها "بلينيوس" والمتضمنة أسماء العديد من المدن والأودية والقبائل التي كانت ضمن دائرة استهداف "بالبوس"، فتحت نقاشًا بين المؤرخين حول خط سير الحملة والمناطق التي وصل إليها. فتعددت وتباينت الآراء، ومن الصعوبة الوصول إلى رأي حاسم في الموضوع. وكانت البداية مع "بالو"، الذي اعتبرها "حملة لافقة للنظر ضد الغرامنت". فبعض المدن التي ذكرها "بلينيوس" تقع ضمن مجالهم: "جاراما" عاصمة الغرامنت، وهي موقع أثري يحمل تسمية "جرمة"، وقد استمر ذكرها حتى زمن الجغرافيين العرب في العصر الوسيط. ونجد كذلك مدينة "قيداموس" التي تمثل أحد عواصم إقليم "فزان"، وهي المعروفة اليوم بـ"غدامس"، وقد وثقت العديد من النقوش اللاتينية هذه

¹ Strabo, Geography, Translated by Horace Leonard Jones. Loeb Classical Library 267. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1932, XVII, 3, 11

² J. Desanges, 1957, P 33, J.-Ph Lefranc, La géologie, Pline l'Ancien et l'Itinéraire de Cornelius Balbus (20 avant J.-C.). Nouvelles identifications, dans Histoire et archéologie de l'Afrique du Nord. IIIe Colloque international (Montpellier, 1-5 avril 1985), Paris, CTHS, 1986, pp 303-316, Th. Monod, Le mythe de l'émeraude des Garamantes, Ant.Afri, t° 8, 1974, pp 51-66, G. Camps, Giri, Encyclopédie berbère, 20 | 1998, pp 3147-3148.

التسمية. علاوة على ذلك، نجد أن هناك أماكن مذكورة تقع ضمن أراضي الجيتول، من الجنوب التونسي إلى الحضنة: "ربسا" Rapsa التي قد تكون "قفصة" أو "غات"، وربما "ر" بطة "Rabta بنواحي "نفزاوة"، و"ثوبين" Thuben هي "طبنة" (Thubunae) بجوار "بريكة". أما شعب "فيسقيرا" Vescera، فيقطن على الأرجح في "بسكرة" Bescera. وبالتالي، فنحن أمام محورين للحملة: محور إقليم المدن الثلاث-فزان، ومحور الجنوب التونسي-الأوراس-الحضنة.¹

في المقابل، اعتبر "كانيا" أن "باليوس" كان مجبراً على تنفيذ حملة مكاملة لتلك التي نفذها سابقه، لكنها لم تكن حسب رأيه ضد "الجيتول" أنفسهم باعتبار أنهم هُزموا وأضعفوا منذ فترة وجيزة، أو أنه ترك لأحد قادته (مفوضيه) مسألة احتوائهم، ما يشير إلى المجهودات العسكرية لجيشه. لذلك، من المرجح أنه كانت للغرامنت قضية مشتركة مع "الجيتول"، وأن الغرامنت تشكلوا من مجموعتين متميزتين: واحدة تشغل "فزان" والعاصمة "جرمة"، والأخرى أكثر عدداً وتعيش في ناحية السيرتين الصغير والكبير. فسيطر "باليوس" على بلاد الغرامنت، ما خلق حالة من العصيان، باعتبار أن جزءاً من مجالهم على الأقل قد ألحق منذ ذلك الوقت بالسيادة الرومانية، ما يعني تمكنه من تحقيق ضربة قوية بهم. ومثلما من الوارد أنه سار لهذه الحملة لوحده، فإنه قد يكون قد قام بها بالشراكة والتنسيق مع بروقنصل مقاطعة "كرت وإقليم قوريناية"، ب. سولبيقيوس كويرينيوس (P. Sulpicius Quirinius)، الذي هاجم شعب "المارمايد" (Marmarides) ما بين 15-20 ق.م. على أن "كانيا" أغفلت مسألة مناقشة المدن المذكورة من قبل "بلينيوس".²

وخلص الباحث الفرنسي "س. غزال" إلى أن "باليوس" شن حملة ضد الغرامنت سنة 20 ق.م، وأن هذا الأمر لم يكن ليتحقق لو لم يكن الرومان مسيطرين على موانئ منطقة السيرتين، مما يعني تبعيتها لإفريقيا البروقنصلية وأنه كان حاكماً لها. كما أن من الوارد، على سبيل الاستثناء، حكمه لمقاطعتي

¹ A. Clément Pallu de Lessert, *Fastes des provinces africaines (Proconsulaire, Numidie, Maurétanies) sous la domination romaine. République et Haut Empire*, E. Leroux, Paris, 1896-1901, v° 1, pp 70-74.

² Florus, *Epitome of Roman History*. Translated by E. S. Forster. Loeb Classical Library 231. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1929, II, 31, R. Cagnat, *l'armée romaine d'Afrique et l'occupation militaire de l'Afrique sous les empereurs* (2e édition). Paris, Imprimerie Nationale, 1912, pp 06-07.

إفريقيا وقورينائية معاً، أو حاكماً لقورينائية فقط، وذلك لأن "بلينيوس" ربط حملته بوصف إقليم "قورينائية"، ومنه توغل إلى أراضي الغرامنت. وهذا الافتراض لا يمكن قبوله، باعتبار أن "أهبة الانتصارات الكابيتولينية" تشير بوضوح إلى كونه بروقنصلاً على إفريقيا.¹ بعد ذلك، ناقش الباحث "لوت" الحدث بإسهاب، حيث اعتبرها مهمة استكشافية حقيقية غاصت إلى عمق الجنوب المغربي. فانطلاقاً من "غدامس" في قلب الصحراء الليبية، وصل إلى النيجر، حيث مرّ على طاسيلي ناجرو والهقار وأدرار. وقد وصل إلى هذه الأطروحة عبر مقارنة الأسماء القديمة والمعاصرة، فاقترح مطابقات جريئة لتبرير هذه الفرضية، من قبيل أن "الآسي/الاسيت" (Alasi/Alasit) تقع في طاسيلي ناجروهي "إلزي" (Illezi)، المكان المعروف اليوم ببرج عمر إدريس (700 - Fort-Flatters) كلم عن إيليزي، وأن "بالسا" (Balsa) هي "أباليسا" (Abalessa) بالهقار، التي تبعد 80 كلم جنوب-شرق تمنراست، ليصل في الأخير إلى نهر "دسيباري" (Dasibari Flumen) بالنيجر، وأنها تسمية مشتقة من السونغاهية وتعني الوادي "الكبير". وبالتالي، فإن "الببوس" حسب الباحث "لوت" مرّ على العديد من المدن الغرامنتية (جرمة، غدامس، ثيلغي، وديبريس)، وعلى جنوب تونس (قفصة Rapsa)، ثم جنوب الأوراس (بسكرة، "يهودة" [Tabudium] وطبنة)، ليتوغل في عمق الصحراء وصولاً إلى "النيجر"، وذلك في مدة إجمالية تقدر بعدة أشهر. وهي فرضية جريئة ولا تزال مستبعدة، بل ومن الصعب تقبلها.²

عارض "ديسانج" هذا الطرح استناداً إلى ثلاثة أدلة: 1- إن المطابقات والمقاربات الخاصة بأسماء الأماكن، التي قدّمها، قابلة للأخذ والرد، وتحتاج إلى إعادة نظر وقراءة متأنية. 2- إن هذه الحملة العسكرية، التي اتجهت بعيداً نحو الجنوب، لا يتناسب خط سير قواتها مع وتيرة التوغل الروماني البطيء في المنطقة خلال الفترة اللاحقة. 3- لو كانت الحملة قد بلغت ذلك العمق، فكيف لم يستغل "بلينيوس" الفرصة لوصفٍ أعمق لبلاد فرّان والغرامنت، خاصة وأن هذا الأمر كان من شأنه أن يُسهّم في تحديد مدى العالم المأهول الذي سعى الرومان إلى معرفته ضمن مشروع خريطة "أغريبا" (Agrippa)؟ فاكثف "بلينيوس" بذكر أنهار ومدن وقبائل قد تكون غير بعيدة عن تخوم مقاطعة إفريقيا البروقنصلية. وعلى ضوء هذه الملاحظات، قدّم "ديسانج" تصوّراً مفاده أن "الببوس" نظّم حملتين: الأولى وصلت إلى عمق أراضي الغرامنت وعاصمتهم "جرمة"، والثانية بلغت "بسكرة"، أو بالأحرى النواحي الجنوبية للأوراس. وهما حملتان ذات طابع عسكري، تمكّن خلالهما من تحقيق الانتصار على

¹ St. Gsell, Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, Paris, Hachette, 1919, t VIII, pp 164-165.

² H. Lhote, Op.Cit, pp 41-81.

الغرامنت، وهم شعب كانت معارف الرومان عنه قليلة، ما يعني أن "الببوس" وجّه حملته ضدهم ووصل إلى مناطق كانت مجهولة تمامًا لدى الرومان. ويعتقد "ديسانج" كذلك أن "الببوس"، أو أحد مفوضيه، واجه الجيتول في السباسب المحاذية للصحراء، في منطقتي الجريد والحضنة، وذلك انطلاقًا من اعتقاده بوجود تحالف بين الغرامنت والجيتول، امتدّ حتى تخوم "موريطانيا"، وهو التحالف نفسه الذي تجدد وظهر بوضوح بعد أربعين سنة في حرب "تاكفاريناس".¹

على أن هذا الطرح عارضه المؤرخ الإيطالي "رومانيلي" الذي كان أكثر حذرا، وحدد خيط سيرها بالجنوب بما يعرف بالمزاق وإقليم المدن الثلاث، أي أنه استثنى جنوب الأوراس.² ويتفق معه الباحث الألماني "توتيش" الذي اعتبر أنه: "في ضوء الإمكانات التقنية الموضوعة تحت تصرف "كورنيليوس بالبوس" وقواته خلال عهد أغسطس، فإنه يتوجب استبعاد أن مجال عملياته العسكري كان له مثل هذا النطاق (الامتداد) الكبير (1240 كلم من الطول)". كما اعتبر أنه بإمكان "الببوس" القيام بحملتين أو تقسيم جيشه إلى رتلين، وبالتالي فمن وجهة نظر حسابية يمكن الوصول إلى هذا الرقم: فهناك 1200 كلم على خط مستقيم من "جرمة" إلى شط الحضنة، ولكن لا أحد يمكنه تصور أن قوات "الببوس" قد سلكت هذا المسار.³ إن هذا الطرح، رد عليه "ديسانج" في مقال آخر، حيث اعتبر أن مسألة الإمكانات التقنية غير دقيقة، لأن "ق. بيترونيوس" (C. Petronius) قبل خمس سنوات من حملة "الببوس" قام بحملة من "أسوان" (Syène) إلى "نبته" (Napata) عاصمة مملكة كوش النوبية، وهما مدينتان تبعدان عن بعضهما بمقدار 1100 كلم، وقد قدر "بلينبوس" ما قطعه "بيترونيوس" بـ 870 ميلاً أي 1300 كلم، وهي حملة بدورها متقاربة مع حملة "أيليوس غالوس" على بلاد العرب، من "وادي عينونة" (Leuke Kome) إلى مأرب (Mariba) اللتين تبعدان عن بعضهما بـ 1500 كلم على طول، لذلك فإن قطع "الببوس" لمسافة تتجاوز 1240 كلم هو أمر وارد، وكل المؤشرات الحسابية تؤكد.⁴

¹ Tacitus, Annals, Translated by John Jackson. Loeb Classical Library 312. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1937, IV, 23, J. Desanges, 1957, pp 14-18.

² P. Romanelli, Storia délie province romane dell' Africa. Rome, Bretschneider, 1959, pp 176-177.

³ L. Teutsch, Das römische Städtewesen in Nordafrika in der Zeit von C. Gracchus bis zum Tode des Kaisers Augustus, Berlin, 1962, pp 227-228.

⁴ Pliny the Elder, VI, 182, J. Desanges, 1978, p 190, n° 9.

على أن المؤرخ الفرنسي "بيكارد" لم يتفق مع أطروحة وصول "بالبوس" إلى النيجر بعد أن عبر الطاسيلي والهقار وأدرار إيفوغاسو التي قدمها الباحث "لوت"، موضحاً أن التعويل على البحث في أسماء مختلف الأماكن التي أخضعها الرومان هو أمر مساعد وليس أساسي كما فعل المؤرخ "ديسانج"، باعتبار أن المجانسة (homonymie) من الفترة القديمة إلى يومنا هذا جد متواترة. كما أن اعتراضه على عدم قدرة "بالبوس" على القيام بحملة بهذه المسافة غير مؤسس، لأن إخضاع الغرامنت يجعل أراضيهم وفق القانون الروماني ضمن "تحت سلطة الشعب الروماني" (ditione Populi Romani). وبالتالي، من الشرعي له الاحتفال عند مراسم الانتصار برموز الأماكن الصحراوية وحتى النيجيرية باعتبارها تابعة لمملكة الغرامنت، لكن ما من دليل يسمح لنا بمعرفة الحدود الجغرافية لمملكة الغرامنت.¹

بالتعويل على أسماء المدن المذكورة مع المطابقات المقترحة من "ديسانج"، قدمت الباحثة "راشي" تصورها القائم على أن "بالبوس" قسم قواته إلى عدة رتل من أجل تحييد الهجمات الموحدة للموريين والجيتول باتجاه حدود إفريقيا البروقنصلية وجعلها مستحيلة من جهة، ومنع مساعدة الغرامنت للقبائل المتحالفة عبر التحرك لحصار وتهديد عاصمتهم البعيدة "جرمة" بكل جرأة من جهة أخرى. وعلى ضوء ذلك، خرج الرتل الأول من "قرطاجة" مفر قيادة الفيلق الأوغسطي الثالث (legio III Augusta) صوب الغرب؛ قيرطا (Cirta) وسطيف (Sitifis) لمواجهة العناصر المورية (قبيلة نيتيريس، مدينة "ديقري"، مدينة "بيغي"، جبل "غوري"). أما الرتل الثاني، فتقدم نحو الجنوب-الغربي لينفذ عملياته بين شط الحضنة والمنحدرات الجنوب-غربية للأوراس بغية توقيف تسلسل الرحل الشمال-الصحراويين نحو الهضاب العليا القسنطينية وحوض وادي ملاق (Muthul)، لأنها قد تدعم أعمالا عدوانية ضد السلطة الرومانية، فتم الاستيلاء على المدن التالية: "باراقوم"، طبنة، ميغ ليس جيميللا، شعب فيسقيرا، تابوديوم" وأخضعوا الإنبيي". وراقب الرتل الثالث المنطقة الممتدة بين "حيدرة" (Ammaedara) ولامبايزيس" (Lambaesis)، وهي منطقة انتشر فيها الرحل والموزولاميين، فتمت السيطرة على مدينتي: ماكسولا و "بيغي". وخرج الرتل الرابع ربما من مواني السيرت الصغير أين واجه القبائل المستقرة بين "رابسا=قفصة" أو غات "و" تابسوس" في المزاق، فتمكن من تحييدها عبر السيطرة على "رابسا"، "تابساغوم" و"بوان". واتجه الرتل الخامس والأخير للمنطقة الأكثر أهمية على

¹ G. Ch.-Picard : La Civilisation de l'Afrique romaine, Paris, Pion, 1959, pp 374-375.

الأرجح تحت إشراف البروقنصل*، حيث اتجه إلى الجنوب للضغط على الغرامنت وتمكن من التوغل والوصول حتى "قيداموس" و"جرمة".¹

إن هذا الطرح نرفضه بشكل عام لعدة اعتبارات منهجية وتاريخية. أولاً، لم تُوضح القوة العددية لهذه الأرتال ولا من كان يقودها، مما يثير تساؤلات حول مصداقية الفرضيات المطروحة بشأنها. كما أنه لا يوجد ما يشير إلى توقيت تنفيذ العمليات العسكرية لهذه الأرتال، وهو ما يزيد من غموض الصورة ويجعل من الصعب تحديد نطاق هذه الحملة بدقة. ثانياً، إن المطابقات المكانية التي يفترضها الطرح لا تمتلك أدلة قاطعة تدعمها، بل تحمل في طياتها الكثير من الجدل والاختلاف بين الباحثين. مما يضعف من قوتها كدليل تاريخي. لذلك، فإن وصول الحملة إلى موريطانيا القيصرية يظل مسألة مشكوكاً فيها، ولا يمكن اعتباره حقيقة تاريخية ثابتة. والأهم من ذلك، أن الرومان لم يتمكنوا من السيطرة على العديد من المدن التي يُفترض أنها كانت ضمن نطاق حملاتهم (مثل خنشلة، القصبات، بسكرة، طبنة، تهودة وغدامس) إلا في أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني الميلادي.

رفض المؤرخ الليبي "أيوب سليمان" العديد من التفسيرات التاريخية المقدمة حول خط سير الحملة، حيث اعتبر أن هذه التفسيرات قدّمت مسارات لحملة "بالبوس" يستحيل قبولها. فاعتبر أن هناك ثلاث أماكن فقط من بين تلك التي ذكرها "بلينيوس" نعرفها بشكل قاطع: صبراتة، غدامس وجرمة، وأن بعض الواحات والقبائل والأماكن الواردة في كتاب "بلينيوس" تقع داخل حدود دولة ليبيا الحالية. وعبر التنقلات التي قادته إلى مختلف المواقع الأثرية الليبية، لاحظ أن الأهالي لا يعرفون شيئاً عن أطلالها. لذلك، فإن المقاربات المكانية المقدمة تفتقد للحسم ولا يمكن الاعتماد عليها. ومن هنا، اقترح خط سير قائم على أن "بالبوس" انطلق من "صبراتة" ووصل إلى "غدامس" التي استولى عليها، ثم توغل في الصحراء حتى وصل إلى وادي الشاطئ وتقدم حتى "ديبريس"، مما مكنه من التوغل والسيطرة على "جرمة" بعد عبوره كثبان "أوباري". ثم غنم "سبها" (Sebha) عبر وادي الآجال، وعاد نحو الشمال عبر

* إن جسامه الهدف المرسوم، وتعقيدات الواقع التكتيكي، إضافة إلى معضلة التزود بالمياه الصالحة للشرب أثناء التقدم في أراضٍ مجهولة ذات طبيعة صحراوية، إلى جانب ما يقتضيه الحضور الميداني من رمزية وهيبة، وأخيراً ضرورة الإشراف المباشر على مواجهة القادة الغرامنت، جميعها عوامل تفرض ضرورة وجود القائد الأعلى على رأس القوات، بوصفه عنصراً حاسماً في ضمان نجاعة العملية العسكرية وتحقيق أهدافها: M. Rachet, Op.Cit, pp 73-74, n° 10.

¹ M. Rachet, Op.Cit, pp 71-73.

"زيزان" (Zizan) (حوض زيزاميت Zizamit إلى الجنوب الشرقي من إقليم طرابلس)، وصولاً إلى "مسلاتة" (Maxulla)، ومنها عاد في النهاية إلى "لبدة".¹ تبعاً لذلك، فإن خط السير المقترح من قبله يتعارض مع تصور "ديسانج" الذي وضع جبل "الجبل الأسود (نيجر)" في "فزان" ووضع جبل "غوري" في حوض وادي الصومام، مما يخلق بُعداً بين نقطتين يُقدَّر بـ 1500 كلم. وطابق "أيوب سليمان" هذا الجبل مع جبل "إيغي" (Eghi) الواقع إلى شرق "فزان"، حيث توجد الأحجار الثمينة المسماة بحجارة الأمازونيت. من جانبه، اعتبر "بيكارد" أن فرضية وقوع الجبل الأسود في موريطانيا القيصرية، كما قدمها "ديسانج"، غير مقنعة، واقترح كبديل جبل "كبركر" الواقع بشرق إقليم المدن الثلاث والمذكور عند "بطليموس".²

قدّم "برثي" بدوره خط سير آخر معارضاً ما اقترحه "ديسانج"، حيث انتقد تصوراته لأنها تتضمن فراغات واقعية تجعل الحملة تستهدف ثلاثة تجمعات رئيسية من المدن والقبائل والأودية. هي: تجمع في الجنوب التونسي، مجموعة تطوق الأوراس، وتجمع بالحضنة. وأشار إلى أن هناك ثلاث نقاط معزولة: واحدة بالقرب من عنابة (قيزانيا)، واحدة في نواحي قسنطينة (ديقري)، أما الثالثة فبجوار وادي الصومام (جيل غوري). في حين أن ما تبقى من مدن، فمن المعروف أنها تقع في فزان (قيداموس، ديريس وجرمة). وعليه، فإن هذا الانتشار المقترح من "ديسانج" يوجي بالاستنتاج أنه، إلى جانب حملته ضد إقليم فزان وقبيلة الغرامنت، نظم العديد من الحملات الأخرى: حملة نحو الجنوب التونسي في ناحية شط الجريد، حملة طوقت الأوراس، حملة إلى الحضنة، وأخرى إلى موريطانيا القيصرية في نواحي منطقة القبائل (حيث وصل إلى حوض وادي الصومام). وإن صح هذا الطرح، فإن الأوقات المناسبة لها (حسب "برثي") هي الأشهر الستة الأخيرة من سنة 21 ق.م، تاريخ تعيينه كبروقنصل (الخریف)، وكل سنة 20 ق.م والأشهر الثلاثة الأولى من سنة 19 ق.م. وعلينا أن نأخذ في الحسبان أن هناك مناطق يستحيل غزوها في الصيف (فزان وشط الجريد) ولا في فصل الشتاء (الأوراس، الحضنة ومنطقة القبائل).

وعلى هذا الأساس، يرى "برثي" أن الحملة اقتصرَت على ليبيا الحالية وربما أيضاً على الجنوب التونسي، فالبروقنصل لا يستطيع أن يشن غارة طويلة ومتعبة بالأبعاد التي تصورها الباحثين "لوت" و"ديسانج"، والتي تقوده سواء إلى الجنوب-الغربي أو الغرب (موريطانيا القيصرية). فحملته في إقليم

¹ A.S. Ayoub, The expedition of Cornelius Balbus (19 B.C), dans Libya in History, Historical Conference 16-23 March 1968, s.l.n.d. (Benghazi, 1971).

² Ibid, J. Desanges, 1957, p 33, G.Ch Picard, Op.Cit, pp 379-380.

المدن الثلاث تغطي لوحدها حوالي 2200 كلم، ما يعني أن القوات إذا تحركت بدون توقف بمعدل 25 كلم يوميًا، فإنها تحتاج إلى قرابة ثلاثة أشهر. وهذا المشي الطويل كان بالتأكيد مرهقًا للجنود، ما يدفعهم للاستراحة مؤقتًا في بعض الأماكن، دون إغفال المناوشات التي قد تحدث من وقت لآخر. وإذا تم احتساب التحضير للحملة، مثل جمع معلومات عن خط المسير، وتدريب الجنود على هكذا حملة، فإن المدة تصل إلى قرابة ستة أشهر، موزعة من شتاء 19-20 ق.م إلى ربيع 19 ق.م لتنفيذ هذه الجسارة الصحراوية. كما أن الأجزاء الصحراوية التي تم عبورها لم تكن بالتأكيد قاحلة كما هي عليه حاليًا، بل كانت تحتوي على تجمعات عمرانية اندثرت وأودية متوسطة التدفق (flumina).¹

ومن أجل معرفة المسافة التي قطعها "بالبوس"، نرجح في البداية أنه حكم المقاطعة لمدة تتجاوز السنة. وإذا كان حكمه قد اقتصر على سنة واحدة، فإنه لم يمتلك الوقت الكافي لقيادة العمليات الحربية والاستكشافية في عمق أراضي الجيتول والغرامنت، وفي مساح بعيدة مثل فزان والحصنة وحواف وادي "جدي" (flumen Nigris). وإذا استندنا إلى القاعدة القانونية لفترة ولاية البروقنصل، فإن "بالبوس" حكم إفريقيا من يوليو 21 ق.م إلى ذات الشهر من سنة 20 ق.م. ونتصور أنه من المستبعد شنه لحملة شتوية رغم أن المناخ لا يمنعه من الوصول إلى فزان. مع ذلك، إذا عدنا إلى ما نقله "تاكيتوس" في سياق سرده لحرب "تاكفاريناس"، من أن حكام إفريقيا قبل البروقنصل "ك. يونيوس بلايسوس" الذي حكمها في 21-23 م، كانوا عادةً ما يسحبون قواتهم في فصل الخريف إلى داخل معسكرات المقاطعة القديمة (=إفريقيا القديمة)²، فإنه يمكن، حسب "ديسانج"، تقبل فرضية أن "بالبوس" قاد حملتين استغرقتا مدة تراوحت بين ثلاثة إلى أربعة أشهر: واحدة نظمها فور توليته منصب بروقنصل إفريقيا رفقة قوات كانت في الأصل في حالة تأهب، لأن البروقنصل الذي سبقه، وهو "أتراتينوس"، كان قد خاض حربًا للتو، والأخرى في ربيع سنة 20 ق.م. مع ذلك، فإن هذا لا يمنع من افتراض أن الفيلق الأوغسطي الثالث تم تقسيمه إلى رتلين: واحد نفذ مهمته في إقليم المدن الثلاث، والآخر عبر الشطوط نحو وادي جدي، وذلك لتهديد واستكشاف الجيتول والغرامنت. وهو تقسيم تم تطبيقه في حرب "تاكفاريناس" زمن البروقنصل "بلايسوس". وإن صح هذا التصور، فمعناه أن أحد الرتلين قاده بالضرورة البروقنصل الذي يحوز على حسن الطالع (الفأل) ليحتفل بالانتصار على كل الأقاليم التي تم انتصر فيها.

¹ A. Berthier, Op.Cit, pp 94-99.

² Tacitus, Annals, III, 74.

إن المسافة المقطوعة خلال الحملة الجيتولية ليست بالضرورة طويلة للغاية، ففتصور أن الرومان قد استفادوا من الفرص والتسهيلات التي تتيحها السباسب المحاذية للصحراء للتحرك السريع، وجعل قواتهم في وضع مكشوف مع إرسال كشافة في كل الاتجاهات، مع الاستفادة من السكان المحليين المتعاونين معهم. وتبعاً لذلك، فإن المسافة من شط الجريد إلى الحضنة لا تصل إلى 500 كلم على طول (كما يطير الغراب). فكان الجيش يسير بمعدل ثلاثين كيلومتراً في اليوم، ما يعني أن الحملة اكتملت في حوالي خمسة عشر إلى عشرين يوماً، وبشكل مؤكد في شهر، مع أخذ الاشتباكات المحتملة بعين الاعتبار. كما أن رحلة الذهاب والعودة من قواعد الانطلاق لا تفوق إمكانيات الجندي الروماني الذي كان يتمتع بتدريب جيد يسمح له بالسير لمسافات طويلة.

أما بخصوص المسافة المقطوعة خلال الحملة ضد الغرامنت، فكما أشرنا، فإن الأسس الفيلولوجية التي استند إليها الباحث "لوت" وقادته للاعتقاد بأن الحملة توغلت في الجنوب لتصل حتى النيجري مسألة مستبعدة وضعيفة للغاية. فحدوث حملة انطلقت من موانئ السيرتين نحو نهر "داسيباري" يجعلنا نتحدث عن مسافة تتجاوز 4000 كلم بين الذهاب والإياب. وإذا اعتبرنا أنه في عهد الإمبراطور "دومتيانوس" (Domitianus) قام "سبتيميوس فلاقوس" (Septimius Flaccus) بالسير لمدة ثلاثة أشهر باتجاه الجنوب ليصل إلى بلاد الأثيوبيين، وبأن "يوليوس ماترنوس" (Iulius Maternus) أدرك "جرمة" ومنها سار أربعة أشهر إلى بلاد "أجيسيمبا" (Agisymba) التي يتكاثر فيها حيوان وحيد القرن،¹ فإنه يمكن تقبل أن "البوس" احتاج بالضرورة إلى مدة تقارب العشرة أشهر لتحضير وتنظيم مثل هذه الحملة. خصوصاً وأن الرومان لم يكونوا يمتلكون معرفة جغرافية سابقة بهذه الربوع وما سيواجههم من صعاب وتحديات. وهذا ما جعل "بيكارد" و"ديسانج" يتفقان على أنه لا يمكن للبروقنصل، مدة ولايته سنة، أن يخصص منها قرابة عشرة أشهر للقيام بتنفيذ هذه الحملة، دون أن نغفل أن حملة بهذه المدة والمسافة تحتاج إلى إعداد تقني ولوجستيكي كبيرين، وأن الجنود لن يقدرُوا على التوغل في هذه المنطقة الصحراوية التي تمتاز بشح مياهها وارتفاع درجة حرارتها. كما أن للبروقنصل مسؤوليات

¹ Claudius Ptolemy, Geography, Translated and edited by E. L. Stevenson, Ph.D., etc. Folio, New York: New York Publib Library, 1932, I, 8, 4, I, 11, 4, J. Desanges, Agisymba, Encyclopédie berbère, 2 | 1985, pp 259-261.

أخرى إلى جانب المهام العسكرية، فتركه للمقاطعة لهذه المدة يتسبب في تعطيل مصالح عديدة ويجعل المقاطعة بلا جيش يحميها.¹

على ضوء ذلك، فإن أطروحة الباحث "لوت" يصعب تقبلها من منظور عملياتي وعسكري ولوجستي. ولتقدير المسافة التي قطعها "الببوس" للوصول إلى بلاد الغرامنت والعاصمة "جرمة"، سنحتاج للعودة إلى إشارات "بلينيوس الأكبر" الذي قدّر في نهاية وصفه لإفريقيا القورينائية (Cyrenaica Africa) مدى (latitudo) هذه الناحية، أي امتدادها من الشمال إلى الجنوب بـ 810 ميل في حدود معرفة عصره.² وفي مقطع آخر من "التاريخ الطبيعي" يعود لتأكيد أنه يتوجب تصحيح هذا التقييم بـ 910 ميل نظرا لإهمال وقع فيه الخطاطون. هذه الإشارة العددية هي الأكثر اكتمالاً وصحة وجاء هذا التصحيح من خلال المعطيات التي بحوزة "أغريبا"، الذي حسن التقييم السابق، فقد كان يتصور أن عرض إفريقيا المأهولة في مجمله هو 250 ميلاً = 375 كلم،³ من الصحراء القورينائية إلى بلاد الغرامنت عبر خط السير المعروف. بذلك، نعرف خطي الطول والعرض لهذه الناحية سنة 12 ق.م، تاريخ وفاة "أغريبا"، والأكيد وكما سنناقش لاحقاً أنه كان لحملة "الببوس" دور كبير في تطوير معطيات قياس العالم المأهول الذي عمل عليه "غالبا" والذي سيتواصل العمل به حتى أواخر القرن الأول ميلادي.⁴

بهذا، قدر المسافة التي قطعها رتل "الببوس" سنة 21 أو 20 ق.م بحوالي 910 ميل، ما يعني قرابة 1350 كلم، وذلك استناداً إلى تقدير العالم المأهول لقارة إفريقيا الذي وضعه "أغريبا" الذي لم يكن له الإمكانات لقياس الأرضية المقطوعة بشكل دقيق. في المقابل، يمكن تقديم تقديرات حول عدد أيام سير الجنود من خلال منح تقدير للسير اليومي والتي نعبّر عنها بالميل. فإذا قدرنا أنه في اليوم كان هناك سير لمسافة 20 ميلاً، فنستنتج أن قوات "الببوس" استغرقت 45 يوماً ونصف (شهرًا ونصفًا) من صبراة التي قد تكون نقطة الانطلاق باتجاه "غدامس"، ومنها إلى أقصى نقطة تم التقدم إليها.⁵

¹ G. Ch.-Picard, Op.Cit, p 375, J. Desanges, 1978, pp 190-192.

² Pliny the Elder, V, 38.

³ Pliny the Elder, VI, 208 (في الكتاب الخامس، الفقرة 25 قيّم بلينيوس امتداد نوميديا وإفريقيا من (الشمال للجنوب بـ 200 ميل فقط).

⁴ J. Desanges, 1978, p 193.

⁵ Pliny the Elder, V, 35.

حسب "ديسانج"، لم يكن البروقنصل يرغب في السير بجنوده بشكل متواصل إلى الجنوب، بل أراد التنقل عبر مختلف المدن. لذلك، لم يكن بالإمكان تقييم المسافة بين "صبراتة" وبلاد الغرامنت بشكل مستمر. على أنه بناءً على وصفه، قام "أغريبا" بتفسير المعطيات الجديدة للمسافة شمال-جنوب التي تسمح بقياس عمق (latitudo) إفريقيا المأهولة. ومن خلال نص "بلينيوس"، نعرف أن "الببوس" وصل إلى "جرمة" وعبر عبر "غدامس"، ثم طاف (دار حول) عقبة جبل "أثير" (قد يكون الحمادة الحمراء). وعلى ضوء ذلك، فإن خط سير البروقنصل، وبالتوافق مع المعطيات الرقمية لأغريبا، ومع المعطيات الحالية، نجد أن البعد بين "صبراتة" و"غدامس" يتجاوز 500 كلم، أما السير من "غدامس" إلى "جرمة" ففي أقصى تقدير هو 800 كلم. لهذا، يمكن القول إن "الببوس" رضي بالوصول إلى عاصمة الغرامنت ولم يرغب في التقدم (التوغل) أكثر جنوباً. علاوة على ذلك، قدر "بطليموس" خط السير المباشر بين "لبدة" و"جرمة" بـ 5400 غلوة (الغلوة، أو الستاديوم، هي 196 م إلى 198 م، أي من 1060 إلى 1070 كلم)، وفي الواقع (حالياً) هي قرابة 1000 كلم، وهي مسافة استغرق "يوليوس ماترنوس" لقطعها في عهد "دومتيانوس" عشرين يوماً؛¹ ربما لكونه تاجر جملة مسالم (مجرد افتراض) ومستفيد من تزايد المعرفة الجغرافية للمنطقة ومن دعم ملك الغرامنت والمرشدين في الوصول إلى منابع المياه، مما ساهم في اختصار وتسهيل التحرك بمعدل 50-60 كلم يومياً، واستغرق قبله "سبتيميوس فلاقوس" وجنوده قرابة شهر.

في الواقع، علينا أن نضع بعين الاعتبار أن "الببوس" كان في وضعية حملة عسكرية تهديدية ورحلة استكشافية لإقليم فزان وأراضي الغرامنت، وكان يتحرك في بلاد مجهولة، حيث كانت معارف الرومان حولها ضئيلة، مما يجعل عملياته تستغرق وقتاً أطول. ومع الانعطاف عبر غدامس والدوران نحو الغرب لتجنب حاجز جبل "أثير"، يمكن تقدير مدة الحملة بنحو شهر ونصف أو أكثر قليلاً إذا توقفت القوات أحياناً بغية القتال أو أخذ قسط من الراحة، لتصل في النهاية إلى "جرمة". وفي المجمل، لقد استهدفت حملة "الببوس" محورين: المحور الأول إلى فزان، حيث انطلقت من "صبراتة" وصولاً إلى غدامس ومنها إلى جرمة، لتعود إلى "لبدة" ومنها إلى العاصمة "قرطاجة". أما المحور الثاني، فمن "قرطاجة" صوب الجنوب التونسي، حيث وصلت إلى قفصة، ومنها اتجهت غرباً، عبرت على القصبات، تهودة، بسكرة، ثم اتجهت نحو الحصنة (طبنة) لتلتف إلى الشرق صوب "خنشلة"، ومنها إلى نواحي "قيرطا"، ثم دخلت الظهير التونسي وعادت إلى العاصمة "قرطاجة". ومثلما من الوارد أن الحملتين كانتا متزامنتين، حيث

¹ Claudius Ptolemy, I, 10, 2.

قاد "الببوس" الأولى (نحو فزان) وقاد الثانية أحد مفوضيه، فمن الوارد أيضاً أنه هو من قادهما شخصياً.

والأكيد أن الوصول (وليس الاستيلاء) إلى عاصمة الغرامنت "جرمة" كان السبب في مكافأته بموكب الانتصار، وذلك لأنه قاد وأشرف على حملة طويلة وجريئة إلى بلاد غير معروفة، سمحت بتحقيق معرفة جغرافية أكبر للرومان. فالكتاب قبل "أغريبا" لم يكونوا يعتقدون أن إفريقيا تمتد بهذا العمق. إلا أن ذلك لا يعني التقليل من أهمية حملته في الجنوب التونسي وجنوب الأوراس؛ البلدات والقرى المحاذية لوادي "جدي" سيعمل الرومان طيلة القرون الثلاثة الميلادية على التوسع للوصول إليها والسيطرة عليها. وتراوحت المدة الإجمالية لها من ثلاث إلى أربعة أشهر ذهاباً وإياباً، وخلقت صدى كبيراً في التاريخ العسكري والجغرافي القديم. لقد حققت العملية نجاحاً عسكرياً واستكشافياً عزز معرفة الرومان بعمق القارة الإفريقية في إطار مشروعهم لقياس العالم القديم.¹

3. نقاش في أسباب وأهداف الحملة:

بالعودة إلى نقىثرة "أبهة الانتصارات الكابيتولينية" ونص "بلينيوس الأكبر"، نجد أنهما لا يشاران إلى مجريات ودوافع هذه الحملة الرومانية التي أشرف عليها "لورنيليوس". مع ذلك، يبدو أن "بلينيوس" قد عمل في حديثه عن حملته على إظهار قوة الجيش الروماني في التخوم والمناطق البعيدة من إفريقيا البروقنصلية ونوميديا، إلا أنه أهمل إبراز قيمة الحملة ودوافعها ومكاسبها، وهذا ما دفع الباحثين للسعي لكشف دوافعها ومكاسبها. إن إحصاء الشعوب والمدن التي ظهرت أسماءها في موكب انتصار "الببوس" قاد إلى اعتبار أنها عمليات قادها شخصياً، وربما إحدى الحملات قادها أحد مفوضيه. وقد سلكت هذه العمليات اتجاهين: الأول إلى الحدود الجنوبية لنوميديا وصولاً إلى ضفاف وادي جدي وحتى "الحضنة" ضد الجيتول، أي أنها كانت للتعرف على الجيتول القاطنين في السباسب المحاذية للصحراء، من الجريد إلى الحضنة. أما الاتجاه الثاني، فكان انطلاقاً من إقليم المدن الثلاث (صبراتة) وجابت إقليم فزان وتقدمت إلى عمق أراضي الغرامنت.² مع ذلك، يبدو بوضوح أن حملته على الغرامنت ووصوله إلى "جرمة" هو ما نال صدى مدوياً عند معاصري "الببوس"، وهذا بالتأكيد لأنه وصل إلى عاصمة مملكة قوية (جرمة) وشعب كبير (الغرامنت). وإذا كان "بلينيوس" قد عبر عن دهشته

¹ J. Desanges, 1980, pp 194-195.

² J. Desanges, 1957, pp 05-43, 1978, pp 189-195, 1980, pp 26-30.

من العدد الكبير لأسماء الأماكن والشعوب التي كان على حسابها "أعمال المنتصر" (acta triumphorum).¹

يرى الباحث "ديسانج" أن "بالبوس" نقّذ عمليات عسكرية نتيجة عصيان القبائل الجيتولية، بدعم من الغرامنتيين، وذلك كردّ فعل على إعادة تأسيس مملكة "موريطانيا" من قبل الإمبراطور "أغسطس" وتعيينه الملك "يوبّا الثاني" (Juba II°) على رأسها، وهي المملكة التي امتدّ مجالها حتى الوادي الكبير (Ampsaga) ومنطقة الحضنة.² وإن صحّ هذا تصوّر، فمعناه أن الجيتول، كما ثاروا في سنتي 21-19 ق.م، قد ثاروا مجدّداً بين سنتي 05 و08 م، فيما يُعرف بالحرب الجيتولية، وهي التي تدخّل على إثرها البروقنصل "قن. لورنليوس لينتولوس قُصوس" (Cn. Cornelius Cossus) لقمعهم.³ وبذلك، يُحتمل أن تكون حملة "بالبوس" قد مثلت بدايةً المواجهات الرومانية ضدّ تحركات القبائل والجماعات الرافضة للاحتلال الروماني ولتعيين الملك التابع "يوبّا الثاني" على رأس مملكة موريطانيا. ولعلّ القرب الجغرافي وتشابك المصالح يزيد من احتمالية وجود تحالف بين الجيتول والغرامنت، كما حدث لاحقاً في حرب "تاكفاريناس"، حيث نشأ بينهما تحالف ضمني بعد أربعين سنة من حملة "بالبوس"، ما يعزز فرضية تجدد هذا التحالف في تلك الحرب.⁴

مع ذلك، لا يوجد دليل يؤكد حدوث تحالف ذي طابع حربي في وقت العمليات التي نقّذها "بالبوس". كما أن دهشة "بلينيوس" لا تعكس، في الواقع، سوى معرفته بالمهمة التي جرت في أراضي الغرامنت. وعلاوة على ذلك، لا توجد أي إشارة أو دليل يسمح بتأكيد وجود تحرك عدائي أو حتى خطر من الغرامنتيين عندما شرع "بالبوس" في التوغّل حتى بلغ عمق أراضيهم. لذلك، قد تكون هذه الحملة ذات طابع حربي-تهديدي، وامتداداً لحملات "إرساء السلام" على تخوم مقاطعة إفريقيا، التي باشروها البروقنصل "ل. سمبرونيوس أتراتينوس" (L. Sempronius Atratinus). علاوة على ذلك، يمكن اعتبارها

¹ S. Guédon, Op.Cit, p 50.

^{2 2} J. Desanges, 1957, pp 41-43.

³ Dio Cassius, Roman History, Translated by Earnest Cary, Herbert B. Foster. Loeb Classical Library 82. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1917, LV, 28, Florus, II, 31, Paulus Orosius, Seven books of history against the pagans, translated I. W. Raymond, Columbia University Press, New York, 1936, VI, 21, 18.

⁴ Tacitus, Annals, IV, 23.

مهمة استكشافية أكثر منها حملة هجومية، مكّنت "الببوس" من الوصول إلى العاصمة الشهيرة "جرمة"، ويبدو أنه لم يُغامر بالتوغّل أبعد من أراضي الغرامنتين. إن ما قد يُؤكد الطابع الاستكشافي لهذه الحملة، هو أنها لم تؤدّ إلى السيطرة على "جرمة" ولا على مملكة الغرامنت،* ولا على العديد من المدن التي لم يصل إليها الرومان إلا في القرنين الثاني والثالث الميلاديين، وهي تلك الواقعة في جنوب الأوراس.

إنّ الاتساع المجالي للعمليات التي نفّذها "الببوس" يقتضي تحضيرات دقيقة وتعبئة لوجستية محكمة، ولا مجال فيها للارتجال. كما أن مدة الحملة لا بدّ أن تُراعى عدم التأثير على المهام الأخرى لـ"الببوس"، الذي كان يشغل وظيفة المسؤول الأول على رأس مقاطعة لا تزال في حاجة إلى جهود إدارية وتنظيمية. وشنّ حملة على بلاد الغرامنت والجنوب النوميدي يفرض عليه مغادرة أراضي المقاطعة في ظروف مناخية مناسبة، كما أن صعوبة التضاريس التي قد يسلكها جيشه خلال مغامرته تدفع إلى الاعتقاد بأن مدة غياب البروقنصل لم تكن سهلة التقدير، وهي ما كان يستوجب دعمًا وموافقة من الإمبراطور "أغسطس"، الذي ربما رأى في الأمر مصلحة كبيرة، على غرار حملة "إيليوس غالوس" (Aelius Gallus) على بلاد العرب في سنتي 26-25 ق.م. في الواقع، إنّ تولّي قيادة حملة بهذا الامتداد والمسیر نحو المجهول يُعدّ مجازفة بالغة الخطورة على مسيرته المهنية وعلى قواته. وقد انتظر الرومان حتى سنة 70 م، وفي سياق حملة "واليريوس فستوس"، لاكتشاف خط سير مختصر يؤدي إلى بلاد الغرامنت. و مثلما ذكر سابقًا، فإنّ حشد جيش "الببوس" نحو "جرمة" كان يتطلّب حوالي شهر ونصف انطلاقًا من "صبراتة"، مرورًا بـ"قيداموس"؛ وهي واحة كبرى تقع في قلب أراضي "الفرانين"، ويبدو أن الرومان تمكنوا من إخضاعها بشكل غير مباشر منذ ذلك التاريخ، واتخذوها قاعدة للتجارة الصحراوية.¹

نتيجة لما قيل، يمكن الاعتقاد، على غرار "ديسانج"، أن المدة الضرورية للوصول إلى الوجهة والعودة تتراوح من ثلاث إلى أربعة أشهر، التي يُضاف إليها الحملة ضد الجيتول التي يمكن تنفيذها في حوالي شهرين.² على أنه من الصعوبة معرفة ما إذا كان "الببوس" قد أشرف عليهما شخصيًا أو على أحدهما،

* يشير "تاكيتوس" في سياق حديثه عن حرب "تاكفاريناس" عن تورط (مشاركة) ملك الغرامنت إلى جنب "تاكفاريناس" في حربه ضد الرومان: Tacitus, IV, 23, 26.

¹ Pliny the Elder, V, 35-36, S. Guédon, op.cit, pp 51-52.

² J. Desanges, 1978, pp 189-195.

أو اختار مفوضيه لقيادتهما، لكن يمكن تصور أن خبراته العسكرية وطموحه السياسي ومهاراته الفكرية دفعته للإشراف عليها شخصيًا؛ وفقًا للتقاليد الرومانية، فالوضع الميموني المرتبط بمهمة البروقنصل يسمح بالاحتفال بالانتصار حتى وإن لم يقد العمليات شخصيًا لأنها نفذت بلسمه وتحت سلطته.¹ ف

على الرغم من صعوبة إنكار الأهداف العسكرية للحملة، يبدو أن الطابع الاستكشافي هو الأكثر أهمية. في هذا الصدد، نجد أنه كان يُنظر إلى ربوع "الغرامنت" المذكورة عند "هيرودوت" كأحد حدود العالم المأهول (المعروف oikoumène) جنوبًا، ويبدو أنها أصبحت محط اهتمام وضمن مشروع الغزو والتوسع والاستكشاف الذي تبناه الإمبراطور "أغسطس" لترسيخ شرعيته وخلق دعاية قوية لسلطته. وقد جاء الاختيار الرمزي للغرامنت لاستحضار تخوم العالم المسكون، وهذا ما يبرر بشكل أفضل عدم وجود أي تذكارات انتصاري روماني يحدد أو يميز النهاية المجالية لإفريقيا قبل حملة "لورنليوس بالبوس". فكما تضاعفت المحافل التذكارية الشهيرة التي تعدد نجاحات "أغسطس" على حدود الإمبراطورية والنهايات المجالية للمناطق التي تم غزوها أو إعادة السلم بها، فإن المصادر تؤكد أن الغرامنتين كانوا حلقة هامة تعبر عن النجاح العسكري الروماني عند تأسيس الإمبراطورية.

بهذا الخصوص، نجد أبياتًا شعرية في غاية الدلالة عند "فيرجليوس" في مؤلفه "الانيادة"، حيث يعدد فيها الشعوب والبلاد البعيدة التي بسط عليها "أغسطس" السيطرة الرومانية، فكتب قائلاً: "والآن وجه ناظريك هذه الناحية لترى هذه الأمة، إنها الأمة الرومانية، أمتك. ها هو "قيصر"، وكل سلالة "يوليوس" التي ستترعرع تحت هذه السماء الواسعة. وها هو الرجل البطل، الذي طالما سمعت عنه، إنه "القيصر أغسطس"، ابن المؤله (الإله)، الذي سوف يعيد العصر الذهبي إلى سهول "اللاتيوم" وحقولها، ويجدد أيام "ساتورنوس"، ولسوف تتخطى إمبراطوريته حدود "الغرامنتين" والهنود، وسيمدد إمبراطوريتنا إلى ما وراء الكوكبة (النجوم) وما بعد مسارات الشمس، أرض تمتد إلى حيث يوجد "الأطلس"، رافع السماوات بنجومها المتلألئة على أكتافه. إنه البطل، الذي ما إن

¹ F. Hurlet, Le proconsul et le prince d'Auguste à Dioclétien. Bordeaux, Ausonius, 2006, pp 147-149, 161-177.

جاء النذير من النبؤات ب قدومه حتى ارتعدت ممالك بحرقزوين وارتعدت أرض "مايوتيس" (Méotide) واضطرب النيل بمجاريه (طياته) السبع".¹

يُظهر هذا المقطع سياسة الغزو والتوسّع التي تبناها الرومان في عهد "أغسطس"، وحجم الافتخار بإخضاع شعوب وبلدان بعيدة، والسعي الحثيث للوصول إلى أقصى الأماكن وسكانها. على أنه إذا كان بعض الباحثين يرفض القيمة الجغرافية لأبيات "فيرجيليوس"، فإنّ ذكر "الهنود" و"الغرامنتيين" يُرمز به بالفعل إلى تخوم العالم المأهول آنذاك، وإلى نزوع الدولة الرومانية إلى تمديد نفوذها نحو هذه الحواف، بغية الهيمنة على العالم المسكون. غير أنّ بعض المعلقين نظروا إلى النص من زاوية أخرى، فرأوا فيه تلميحاً واقعياً إلى سفارات استُقبلت في روما أو حملات عسكرية تمّت بالفعل، وبالتالي فهو يُعبّر عن الحالة السياسية الراهنة في روما (الحوادث المحلية). بهذا المعنى، تُشير كلمات "فيرجيليوس" إلى التمدد المستقبلي للإمبراطورية، الذي يتجاوز حدود بلاد الغرامنت.² وتبعاً لذلك، لا يُستبعد أن يكون ما نقله هذا الشاعر صدى لحملة "كورنيليوس" سنة 20 ق.م، والتي تمّ الاحتفال بها في 27 مارس 19 ق.م، بينما توفي الشاعر بعد ذلك بعدة أشهر، في سبتمبر من السنة نفسها. وإذا كان التركيب الكلي للإنشادة قد اكتمل سنة 22 ق.م، فقد يكون "أغسطس" قد فكّر أصلاً في هذه الحملة وناقشها مع مستشاريه. وبناءً على ذلك، نحن أمام فرضية مفادها أنّه كان هناك مشروع مسبق للوصول إلى بلاد الغرامنت، وكان "فيرجيليوس" على دراية به، أو أنه، نتيجة حملة "كورنيليوس"، قام الشاعر بإجراء تنقيح نهائي على عمله، أضاف فيه أبياتاً شعرية تُخلّد هذا الإنجاز الاستكشافي والعسكري.

لكن يبدو أنّ "أغسطس" لم يكن بإمكانه أن ينسب مجد هذه الحملة العسكرية، التي نفذت في مقاطعة عامة (سيناتورية) إلى نفسه ظ، ما جعله يتجنب ذكرها في "أفعال المعبود أغسطس". مع ذلك، فإنّ حملة "البوس"، التي تُعدّ أول حملة عسكرية معروفة على تخوم مقاطعة إفريقيا البروقنصلية، كانت منسجمة مع الطموح السياسي لـ "أغسطس"، الذي عبّر عنه قائلاً: "تم توسيع

¹ فرجليوس: الإنشادة، ترجمة نخبة من الأساتذة، الجزء الأول، المركز القومي للترجمة، 2011، الكتاب السادس، 789-800، ص 308.

² إشارة "فرجليوس" إلى بلاد "الأطلس" الواقعة ما وراء بلاد الغرامنتيين والأثيوبيين لا يزال محل غموض من الناحية الجغرافية، فقد يكون معنى "الأطلس" في القصيدة هو "بطل الأسطورة"، لكن في المجمل مثلت أراضي الغرامنت والأثيوبيين الحد الذي سعى "أغسطس" للوصول إليه: S. Guédon, Op.Cit, p 53, n° 72.

حدود جميع مقاطعات الشعب الروماني، من بينها تلك المجاورة للأمم لم تخضع لسلطتنا".¹ إنَّ التقدّم إلى عمق إقليم الغرامنت، وعلى أراضٍ معروفٍ أنَّ الوصول إليها بشكل عسكري-تجاري كان ممكناً، وقد وصلها القرطاجيون من قبل وربما حتى اليونانيون، لم يكن خالياً من المخاطر والتحديات. نتيجة لذلك، يمكن اعتبار هذه الحملة بمثابة مهمة استكشافية، حرّكها دافع سياسي يتمثّل في روح الغزو، وهي الروح التي تُجسّد بدقّة مفهوم "التوسّع الإمبراطوري" (*propagatio imperii*)، الذي يقوم على الدعاية للسلطة الجديدة في روما، والذي تبناه عدي الأباطرة الرومان. وقد كان "أغسطس" يسعى إلى ترسيخ دعائم إمبراطورية قوية ومترامية الأطراف، تُظهر عظمة النظام الإمبراطوري في مواجهة خصومه من الجمهوريين.

إذا كان ما ذُكر يُصنّف ضمن الاعتبارات السياسية، فإنه لا يمكن استبعاد الدافع الاقتصادي ضمن الحوافز التي دفعت إلى تنفيذ حملة "بالبوس" في بلاد الغرامنتين. فالعاصمة "جرمة"، التي أشار إليها "بلينيوس" في إحدى فقراته، وصفها بأنها مدينة "شهيّة للغاية" *clarissimumque Garama, caput* (*Garamantum*)،² وتؤكد هذه المكانة والشهرة في مصادر حررت قبله. ولا شكّ في أن موقعها البعيد – إذ إنّ وجود الغرامنت في إقليم فزان أثار جدلاً حول تصنيفهم: هل هم ليبيون أم أثوبيون؟ – والصعوبات المناخية والتضاريسية للوصول إلى عمق أراضيهم، قد زادت من شهرتها وغموضها. علاوة على ذلك، فإنّ ثرواتهم ومؤهلاتهم التجارية قد صنعت لهم هيبة وسمعة كبيرتين، وكأنّ "بالبوس"، ذو الأصول الفينيقية-القرطاجية، أراد من خلال هذه الحملة استكشاف موارد الإقليم وتسخيرها لصالح الرومان. في هذا السياق، يذكر "بلينيوس" ضمن حديثه عن الحملة، الأحجار الثمينة التي يُشتهر بإنتاجها جبل "غوري/غيري" (*Gyri/Giri*)، كما توضحه اللوحة المكتوبة المرافقة لاسم المكان.³ وقد يكون إدراج هذا الجبل في ختام ما ورد من نتائج الحملة-حيث اختُتِمت به قائمة طويلة من المدن والأودية والشعوب التي عُرضت في موكب احتفال انتصار "بالبوس"- راجعاً إلى القيمة المرموقة التي قد ينطوي عليها الوصول لمثل هذا الموقع.

¹ Augustus, *Res Gestae Divi Augusti*. Translated by Frederick W. Shipley. Loeb Classical Library 152. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1924, 26, 1, S. Guéron, Op.Cit, pp 53-54.

² Pliny the Elder, V, 37-38.

³ « mons Giri in quo gemmas nasci titulus praecessit » : Pliny the Elder, V, 37-38.

مع ذلك، لا شيء يسمح بتحديد موقعه على وجه اليقين.¹ غير أن هذا لم يمنع "لوفرانك" من اقتراح مطابقة جبل "غوري" مع السلسلة الجبلية لجبل الحساونة.² وتعد هذه المنطقة البركانية الواقعة شمال "فزان" غنية بإمكانيات جيولوجية لاستخراج الأحجار الكريمة.³ وتموضع هذا الجبل على الطرف الشمالي لإقليم الغرامنت، وعلى حافة بلاد الناسمون يتوافق تماما مع ما أشار إليه "بلينيوس"، إذ تُسب في هذا الموضع اسم "الياقوت القرطاجي" (Carchédonienne)⁴ لبعض أصناف الأحجار الكريمة المسماة أيضًا "بالغرامنتية" (garamantique)، باعتبارها كانت في السابق موضوعا لتجارة نشطة مع "قرطاجة". ووفقًا لبلينيوس، فإن هذه الأحجار كانت من بين مصادر ثراء المدينة، حيث كانت تُجلب من الجبال الواقعة في بلاد الناسمون.⁵ وإلى جانب هذه الثروة المنجمية التي امتلكها الغرامنت، والتي دفعت عددًا من الجغرافيين القدماء إلى الإشارة إليها، فقد عُرف الغرامنتيون بلعهم دور الوسيط في تجارة هذه الأحجار، بل وحتى العبيد، إذ كانت لقرطاجة علاقات تجارية قديمة مع شعبي الغرامنت والناسمون عبر مسالك الصحراء الليبية.⁶ وقد اعتبر "بلينيوس الأكبر" الأحجار الثمينة الغرامنتية والهندية النوعين الرئيسيين من العقيق الأحمر (escarboucle) المنتشر في العالم الروماني، إلى جانب أنواع أخرى ثانوية.⁷ ويبدو أن الغرامنتيين شاركوا أيضًا في تجارة العقيق الأحمر الإثيوبي، حيث عملوا

¹ J. Desanges, 1980, pp 409-410, G. Camps, 1998, pp 3147-3148.

² J.-Ph Lefranc, Op.Cit, pp 303-316.

³ D. Mattingly, T. Reynolds, J. Dore, Synthesis of Human Activities in Fazzān, David Mattingly (éd.), The Archaeology of Fazzān, v° 1: Synthesis, Londres-Tripoli, The Society for Libyan Studies, 2003, p 358.

⁴ أخذ تسميته من كلمة "Carchedon"، وهو الاسم الثاني لقرطاجة أو بالأحرى الاسم الإغريقي لمدينة "قرطاجة".

⁵ Pliny the Elder, XXXVII, 92, 104, Strabo, XVII, 1, 53 (حسب "سترابون كذلك فقد كان)

(القرطاجيون يجلبون الأحجار الكريمة من الغرامنتيين).

⁶ J. Desanges, 1980, pp 383-384.

⁷ Pliny the Elder, XXXVII, 92.

كوسطاء، وفقًا لما أورده "بلينيوس"، الذي أشار إلى أن هذه الحجارة كانت تُجلب من بلاد "سكنة الكهوف" (Troglydtes).¹

بالإضافة إلى ما قيل، فإنّ حملة "كورنيليوس بالبوس" إلى أراضي الغرامنتيين تُشبه حملة "أيليوس غالوس" على بلاد العرب، إذ كانت لهما نتيجة رئيسية، وهي التعرّف بصورة أفضل إلى تخوم الإمبراطورية والأقاليم المجاورة لها، وهي مساهمة لا يمكن إغفالها. إنّ المعارف المستقاة من هذا النوع من الحملات تتيح تقديرًا أدقّ للصعوبات المادية التي يُثيرها طموح السيطرة على العالم المسكون.² وشهادة "بلينيوس" تأخذ بعين الاعتبار النتائج العملية والفورية التي تولدت عن الإفادات التي زوّد بها "البوس" السلطات الرومانية، والتي، شأنها شأن غيرها، ساهمت في تطوير المعارف الجغرافية والسياسية والاقتصادية حول التخوم الجنوبية لإفريقيا من خلال اكتشاف مسار الطريق المؤدي إلى بلاد الغرامنت. وقد مكّنت هذه الإفادات "أغريبا" (Agrippa) من اقتراح تقييم جديد للمسافة بين الشمال والجنوب، وتحديد عمق إفريقيا المعروفة آنذاك، وهو تقدير اقترح مسافة أطول (وأهمّ) من تلك التي كان يُعتقد بها في ذلك الحين.³

إنّ هذا التقدير الجديد أفاد في اكمال مشروع "قياس العالم" المنسوب إلى "قيصر"، وفقًا لتقليد الفترة المتأخرة، وهي الفترة التي يمكن أن نلمس فيها أثر إنجاز العمل الجغرافي لأغريبا الذي بدأ سنة 44 ق.م واستمرّ حتى منتصف عهد "أغسطس". بذلك، يمكن القول إنّ حملة "البوس" جاءت أيضًا لتنفيذ وتعزيز معارف "أغريبا" حول إفريقيا، وأنّ مراسم احتفال النصر التي نظّمها في روما تُعدّ أول خطوة في استكمال مشروع "خريطة أغريبا للعالم"، والذي تمّ الانتهاء منه سنة 12 ق.م، وهو تاريخ وفاة "أغريبا".

¹ Pliny the Elder, V, 34.

² J.-M Roddaz, Auguste et les confins, L'Africa romana, 15 (1), 2004, p 273.

³ Pliny the Elder, V, 38, VI, 209, P. Trouset, la carte d'Agrippa : nouvelle proposition de lecture, D.H.A, v°19, n°2, 1993, pp 137-157, P. Arnaud, Introduction : la géographie romaine impériale, entre tradition et innovation, dans Gonzalo Cruz Andreotti, Patrick Le Roux et Pierre Moret (éd.), La invención de una geografía de la Península Ibérica, v° 2: La época imperial, Madrid, Casa de Velázquez, 2007, pp 13-46, Texte et carte de Marcus Agrippa : historiographie et données textuelles, Geographia Antiqua, 2007-2008, 16-17, pp 73-126, S. Guéron, Op.Cit, pp 55-56.

على ضوء ما سبق، فإنّ حملة "كورنيليوس بالبوس" على الغَرامنت لم تكن لأغراض حربية، إذ لم يستولِ الرومان على مدن الغَرامنت خلال هذه الحملة، بل اكتشفوا وتعرفوا إلى مسارات الوصول إلى أهم مدنها. وبالتالي، نُظمت الحملة لأغراض استكشافية، ضمن مشروع "أغريبا" على الأرجح، بهدف دراسة إقليم الغَرامنت وفزان، دون إغفال أهمية اكتشاف الجنوب النوميدي، الذي سيسعى الرومان خلال القرون اللاحقة إلى السيطرة على أراضيه النافعة. لقد كان الهدف والطموح الأكبر يتمثل في اكتشاف بلاد الغَرامنت المجهولة، والتي كان يُعتقد حينها أنّها تمثل نهاية العالم المسكون. وقد نجح "الببوس" في الكشف عن المقدّرات والمؤهلات الاقتصادية للمناطق التي بلغها، محقّقًا بذلك جزءًا من مشروع "أغريبا"، الذي أتاح فهمًا أعمق للنطاقات التي كان الرومان يطمحون إلى بلوغها والسيطرة عليها، والاستفادة من ثرواتها ومؤهلاتها التجارية.

خاتمة

على ضوء ما قيل، يمكن استخلاص النتائج التالية:

- حملة بالبوس الصغير: حدث محدود بأفق توسعي غير مسبوق: لم تقتصر أهمية حملة بالبوس على بعدها العسكري المحدود، بل يجب فهمها في إطار مشروع سياسي أوسع، يقوم على إعادة صياغة العلاقة بين المركز والأطراف في العالم الروماني. فقد شكّلت الحملة خطوة رمزية تشير إلى أن روما، وقد دخلت عهد أغسطس، باتت تنظر إلى التوسّع بوصفه فعلاً ذهنيًا وتمثيليًا، لا مجرد هيمنة ميدانية. لم تعد الصحراء مجرد فضاء جغرافي هامشي، بل أضحت ميدانًا جديدًا لطموحات الإمبراطورية. ومع بالبوس، تحوّل الجنوب الغامض إلى ساحة لاستعراض القوّة الناعمة والرمزية للنظام السياسي الجديد. وهكذا دشّنت الحملة نمطًا جديدًا في الحكم الروماني يقوم على الوصول والتمثيل، لا على الاحتلال والدمج.

- صعود بالبوس: تمثيل لتحولات اجتماعية عميقة في بنية السلطة الرومانية : كشفت المسيرة السياسية لبالبوس اختراقًا مذهبًا للبنية الأرستقراطية التقليدية في روما؛ فقد استطاع رجل من أصول غير رومانية (كنعانية) أن يرتقي إلى موقع رمزي رفيع، ويُمنح شرف موكب النصر. لم يكن هذا الإنجاز معزولًا، بل جاء في سياق التحوّل الذي أطلقه أغسطس في رؤية الدولة لمفهوم الأهلية السياسية والاجتماعية، حيث بات الولاء والكفاءة معيارين بديلين عن النسب والدم. لقد جسّد بالبوس سياسة دمج النخب الإقليمية في مركز القرار، ما ساهم في ترسيخ دعائم الإمبراطورية الناشئة.

وبهذا المعنى، شكّل صعوده تأكيداً على مرونة النظام في استيعاب الفاعلين الجدد، شريطة أن يظهروا براعتهم في خدمة الدولة ومصالحها العليا، فغداً بالبوس رمزاً لروما المتجددة ما بعد الجمهورية.

-القائد المستكشف: عبور بين السيف واليخلة : ما ميّز بالبوس عن كثير من القادة الرومان هو تعامله مع الصحراء لا بمنطق القهر المباشر، بل بمنهج استكشافي ذكي، مركّز على معرفة دقيقة بالبيئة. لقد اعتمد على وسائل ميدانية غير تقليدية، كاستخدام الجمال بدلاً من الخيل، والاستعانة بالكشاف والمشاة عوضاً عن الهجمات المباشرة. ويعكس هذا التوجّه وعياً لوجستياً متقدماً، ويدل على فهم بالبوس العميق لخصوصية المجال الصحراوي. كما أن تخطيطه للحملة أبان عن حسنٍ عليّ واستباقي، ما يجعلنا نراه أقرب إلى "مستكشف إمبراطوري" منه إلى جنرال تقليدي. هكذا قدّم بالبوس نموذجاً جديداً للقيادة، يمزج بين السياسة والجغرافيا والانضباط العسكري.

-تمثيل الصحراء: تحوّل الهامش الجغرافي إلى مركز رمزي : أسهمت الحملة في تحويل الصحراء من هامش جغرافي مهمل أو مصدر تهديد، إلى مجال رمزي تُبنى عليه مفاهيم جديدة للسيادة. لم يكن الهدف من الحملة الاحتلال طويل الأمد، بل الوصول والعودة محمّلين بالخرائط والمعرفة والصور، وهي أدوات تعزز الخطاب الإمبراطوري في الداخل. بفضل هذه الحملة، غدت الصحراء جزءاً من سرديّة روما عن ذاتها كقوة لا تعيقها الطبيعة ولا المسافات. وهنا تتجلّى عبقرية أغسطس السياسية في توظيف الحملات الرمزية لتوطيد الحكم وترسيخ رسالته الكونية. فالصحراء لم تُهزم ميدانياً، بل خضعت في الخيال، وكان ذلك كافياً لبناء نصر سياسي-ثقافي في زمن يتعطّش فيه الرومان إلى المجد والفخر.

-مشروع "قياس العالم" وتجسيده في حملة بالبوس : لم تكن الحملة معزولة عن التوجّه الاستراتيجي العام الذي أطلقه يوليوس قيصر ومن بعده أغسطس، والرامي إلى توسيع الإدراك الروماني للعالم. فقد انخرط بالبوس في هذا المشروع، حيث استخدمت حملته كأداة لرسم جغرافيا جديدة، ودمج شعوب ومناطق مجهولة في المخزون المعرفي للإمبراطورية. لقد كانت الحملة بمثابة "مهمة استخبارية كبرى"، لجمع المعلومات عن الغرامنت والجيتول وطرقهم التجارية وثرواتهم وقدراتهم القتالية. ومع كل ميل تقطعه الحملة، كانت روما ترسم حدوداً جديدة لسلطتها الرمزية. وباتت القوة تُقاس لا بعدد الجيوش فقط، بل بقدرة روما على تعريف الآخر، ورسم خرائطه، وإدماجه في سرديتها الكونية.

-تقاطع الطموح الفردي مع الرؤية الإمبراطورية لأغسطس: تمثل حملة بالبوس نموذجاً نادراً للتفاعل النشط بين الطموح الفردي والمصلحة العليا للإمبراطورية. فالرجل لم ينطلق ربما بأمر صارم من

المركز، بل قد يكون بادربالحملة بدافع ذاتي لتحقيق مجده السياسي، لكنه، في الآن ذاته، خدم السردية الإمبراطورية التي بناها أغسطس. تكشف هذه العلاقة عن مرونة المشروع الأوغسطي، وقدرته على تحويل المبادرات الفردية إلى أدوات تدعيم للشرعية. كما تبرز كيف أن الفرد الطموح، حين يقرأ اللحظة التاريخية بذكاء، يمكن أن ينسجم مع مسار السلطة، فيخدمها ويستثمرها معًا. وهكذا كانت الحملة لحظة تلاقي بين رغبة بالبوس في الخلود والمجد وإبراز الاستحقاق، وطموح أغسطس في شرعنة حكمه.

-دوافع اقتصادية مضمرة خلف البريق العسكري: وراء الخطاب الدعائي الذي مجّد الحملة كبطولة عسكرية، تلوح مؤشرات على دوافع اقتصادية دفينّة. فقد انطلقت الحملة من صبراتة، المدينة التجارية النشيطة، باتجاه طرق القوافل التي تصل الساحل بالعمق الإفريقي. ولا يُستبعد أن تكون نخب التجار في روما قد شجعت أو مؤّلت هذه المغامرة، سعيًا إلى فتح مسالك تجارية جديدة، وتأمين موارد نادرة كالعاج والذهب والعبيد. وعليه، فإن الحملة، وإن اتخذت طابعًا عسكريًا ورمزيًا، كانت في عمقها مشروعًا اقتصاديًا صامتًا يخدم مصالح الإمبراطورية الحيوية. وهكذا تداخلت السياسة والاقتصاد والمعرفة الجغرافية في مغامرة مركّبة، متعددة الأبعاد.

-إعادة صياغة العلاقة بين روما وأطرافها الإفريقية: أحدثت الحملة تحوّلًا في نظرة روما إلى فضاءات الأطراف، لا سيما الصحراوية منها. فبدلًا من اعتبار الجنوب الإفريقي مجالًا خارج السيطرة، أصبح يُنظر إليه كمجال قابل للإدماج الرمزي والاستخباري. لم يكن ذلك إدماجًا سياسيًا تقليديًا، بل إدماجًا معرفيًا قوامه الرصد والتصنيف والتسمية، أي سلطة المعرفة لا سلطة الحكم. وهكذا دخل الهامش الإفريقي تدريجيًا في الخيال الإداري والجغرافي لروما، فغدّت فزان والغرامنت حاضرين في النصوص والتقارير والمخططات، وإن لم يكن هناك احتلال ميداني دائم. لقد بدأت روما تتعامل مع الهوامش لا كتهديد، بل كأطراف قابلة للترويض الناعم والاحتواء الرمزي.

-موكب النصر: تكريس للإنجاز الرمزي واستثمار دعائي محسوب: إن منح بالبوس شرف الاحتفال بموكب النصر، رغم غياب نصر عسكري حاسم أو ضمٍّ لأراضٍ كبرى، يدل على التقدير الرمزي الكبير الذي أولاه أغسطس لحملة. لم يكن ذلك تكريمًا عسكريًا فحسب، بل استثمارًا سياسيًا مدروسًا في لحظة رمزية تثبت أن روما قادرة على التوغّل في أقصى هوامش عالمها. لقد استُخدم موكب النصر كأداة لصناعة المعنى، حيث جُسّدت في العاصمة تفاصيل حملة لم يشهدها عامة الشعب، وروّج لها بوصفها إنجازًا إمبراطوريًا خارقًا. وهكذا تحوّل الفعل العسكري المحدود إلى عرض سياسي ضخم،

تخدمه الدعاية، وتضفي عليه هالة السيادة، حتى في غياب الفتح الحقيقي. لقد باتت روما تنتصر في الخيال كما في الميدان، وربما أكثر.

-ملامح استعمار مبكر: السيطرة عبر المعرفة والتمثيل لا الاحتلال : تكشف حملة بالبوس عن شكل مبكر من أشكال الاستعمار غير المباشر، تمارسه روما من خلال أدوات المعرفة والوصف والتمثيل، بدلاً من السيطرة المباشرة أو الاستيطان. فقد أرادت روما أن تعرف الشعوب والطرق والموارد، لا لتحكمها ميدانيًا، بل لتجعلها جزءًا من خطاب السيادة. هذا النمط من الهيمنة الناعمة تطوّر لاحقًا إلى استعمار معرفي مارسه الجغرافيون والمؤرخون والبيروقراطيون، قبل أن يترجمه العسكريون إلى واقع. وهكذا شكّلت حملة بالبوس نواة عقلية استعمارية رمزية، تجعل من رسم الخرائط ومعرفة الآخر وأراضيه وثرواته فعلًا من أفعال السيادة والتفوق المعرفي.

قائمة المصادر والمراجع:

-المصادر العربية:

-فرجليوس، الإنيادة، ترجمة نخبة من الأساتذة، الجزء الأول، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2011.

-المصادر والمراجع الأجنبية:

-A.E= l'Année épigraphique, PUF, Paris.

-M. S. Ayoub, The expedition of Cornelius Balbus (19 B.C.), dans Libya in History, Historical Conference, 16-23 March 1968, s.l.n.d. (Benghazi, 1971).

-Augustus, **Res Gestae Divi Augusti**, Translated by Frederick W. Shipley. Loeb Classical Library 152. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1924.

-A. Berthier, La Numidie ; Rome et le Maghreb, Paris : Picard, 1981.

-R. Cagnat, **l'armée romaine d'Afrique et l'occupation militaire de l'Afrique sous les empereurs**, (2e édition). Paris, Imprimerie Nationale, 1912.

-Caius Iulius Solinus: **Polyhistor**, trad: M. A. Agnant, Paris, C. L. F. Panckoucke, 1847.

-G. Camps, Dasibari, **Encyclopédie berbère**, 15 | 1995.

-G. Camps, Giri, **Encyclopédie berbère**, 20 | 1998.

-Claudius Ptolemy, **Geography**, Translated and edited by E. L. Stevenson, Ph.D., etc. Folio, New York: New York Publib Library, 1932.

- J. Desanges, Le triomphe de Cornelius Balbus (19 avant J. C.), **Revue Africaine**, CI, 1957.
- J. Desanges, les territoires gétules de Juba II, **R.É.A**, t 66, 1964.
- J. Desanges, **Recherches sur l'activité des Méditerranéens aux confins de l'Afrique (VIe siècle avant J.-C. - IVe siècle après J.-C.)**, coll. de l'École Française de Rome, Paris (De Boccard) et Rome (l'Erma), 1978.
- J. Desanges, Plinie l'Ancien : **histoire naturelle**, livre V, 1-46. 1re partie (L'Afrique du Nord), édition, trad et commentaire par Desanges Jehan, Paris, Les Belles Lettres, 1980.
- J. Desanges, Enipi, **Encyclopédie berbère**, 17 | 1996.
- Dio Cassius, **Roman History**, Translated by Earnest Cary, Herbert B. Foster. Loeb Classical Library 82. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1917.
- Florus, **Epitome of Roman History**. Translated by E. S. Forster. Loeb Classical Library 231. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1929.
- M. Gast, Abalessa, **Encyclopédie berbère**, 1 | 1984.
- M. Gast, Imenân, **Encyclopédie berbère**, 24 | 2001.
- St. Gsell, **Histoire ancienne de l'Afrique du Nord**, Paris, Hachette, 1919, t VIII, pp 164-165.
- S. Guéron, **La frontière romaine de l'Africa sous le Haut-Empire**, Casa de Velázquez, Madrid, 2018.
- H. De La Ville de Mirmont, Cicéron et les Espagnols (suite et fin), **Bulletin Hispanique**, t°8, n°1, 1906.
- F. Hurlet, **Le proconsul et le prince d'Auguste à Dioclétien**. Bordeaux, Ausonius, 2006.
- J.-P Laporte, X. Dupuis, De Nigrenses Maiores à Négrine, **Ant.Afr**, v° 45, 2009.
- J.-Ph Lefranc, La géologie, Plinie l'Ancien et l'Itinéraire de Cornelius Balbus (20 avant J.-C.). Nouvelles identifications, dans : **Histoire et archéologie de l'Afrique du Nord. IIIe Colloque international** (Montpellier, 1-5 avril 1985), Paris, CTHS, 1986.
- H. Lhote, L'expédition de Cornelius Balbus au Sahara en 19 avant J.-C, d'après le texte de Plinie, **Revue Africaine**, t° XCVIII, 1954.
- S. Lancel, une inscription de Tigisis, **Libyca**, III, 1955.
- D. Mattingly, **Tripolitania**, London : Batsford, 1995.

- D. Mattingly, T. Reynolds, J. Dore, Synthesis of Human Activities in Fazzān, in : **The Archaeology of Fazzān, v° 1: Synthesis**, David Mattingly (éd.), Londres-Tripoli, The Society for Libyan Studies, 2003.
- Th. Monod, Le mythe de « l'Émeraude des Garamantes », **Ant.Afri**, t° 8, 1974.
- A. Pascal, Introduction: la géographie romaine impériale, entre tradition et innovation, dans Gonzalo Cruz Andreotti, Patrick Le Roux et Pierre Moret (éd.), **La invención de una geografía de la Península Ibérica, v° 2: La época imperial**, Madrid, Casa de Velázquez, 2007.
- A. Pascal, Texte et carte de Marcus Agrippa : historiographie et données textuelles, **Geographia Antiqua**, 16-17, 2007-2008.
- A. Pallu de Lessert Clément, **Fastes des provinces africaines (Proconsulaire, Numidie, Maurétanies) sous la domination romaine. République et Haut Empire**, E. Leroux, Paris, 1896-1901.
- Paulus Orosius, **Seven books of history against the pagans**, translated I. W. Raymond, Columbia University Press, New York, 1936.
- Ch.-G Picard, **La Civilisation de l'Afrique romaine**, Paris, Pion, 1959.
- Pline l'Ancien, **Histoire naturelle de Pline**, Trad: M. Ajasson de Grandsagne, C.L.F. Panckoucke, Paris, 1833.
- Pliny the Elder, **Natural History**, Translated by H. Rackham. Loeb Classical Library 352. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1942.
- M. Rachet, **Rome et les Berbères. Un problème militaire d'Auguste à Dioclétien**, (Collection Latomus, vol. 110), Bruxelles, 1970.
- J.-M Roddaz, Auguste et les confins, **L'Africa romana**, 15 (1), Tozeur (Tunisie), 2004.
- P. Romanelli, **Storia delle province romane dell' Africa**, Rome, Bretschneider, 1959.
- Strabo, **Geography**, Translated by Horace Leonard Jones. Loeb Classical Library 267. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1932.
- Tacitus, **Histories**, Translated by Clifford H. Moore, John Jackson. Loeb Classical Library 249. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1931.

-Tacitus, **Annals**, Translated by John Jackson. Loeb Classical Library 312. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1937.

-L. Teutsch, **Das römische Städtewesen in Nordafrika in der Zeit von C. Gracchus bis zum Tode des Kaisers Augustus**, Berlin, W. de Gruyter & Co, 1962.

-P. Trouset, Alele, **Encyclopédie berbère**, 3 | 1986.

-P. Trouset, Besseriani (Ad Majores), **Encyclopédie berbère**, 10 | 1991.

-P. Trouset, la carte d'Agrippa : nouvelle proposition de lecture, **D.H.A**, v°19, n°2, 1993.

-P. Trouset, Cidamus, **Encyclopédie berbère**, 13 | 1994.

-P. Trouset, Garama, **Encyclopédie berbère**, 19 | 1998.

-P. Trouset, Gemellae, **Encyclopédie berbère**, 20 | 1998.